موقف أهل السنة القدماء
بإزاء علوم الأوائل[1]

لاجنتس جولدتسيهر

— ١ —

« علوم الأوائل » أو «علوم القدماء» أو « العلوم القديمة[2]» اسم أطلقه الكتاب الاسلاميون على تلك العلوم التى نفذت إلى البيئة العلمية الاسلامية بتأثير المؤلفات المأخوذة عن الكتب اليونانية[3] تأثيراً مباشراً أو غير مباشر، وهى التى يسمونها كتب الأوائل [4] فى مقابلة علوم العرب [5] والعلوم المحدثة[6]، وفى مقابلة العلوم الشرعية على وجه التخصيص[7]. وفى مقدمة علوم

---

(١) [نشر هذا البحث فى نشرة « مباحث الأكاديمية الملكية البروسية للعلوم » سنة ١٩١٥ ، القسم الفلسفى التاريخى ، العدد رقم ٨ . وهذا عنوانه فى الأصل : *Stellung der alteni slamischen Orthodoxie zu den antiken Wissenschaften,* von Ignaz Goldziher, in Budapest. Aus den Abhandlungen der Königl. Preuss. Akademie der Wissenschaften. Jahrgang 1915. Phil-Hist. Klasse. Nr. 8. Eizelausgabe, Berlin, 1916 . راجع ترجمة جولدتسيهر فى الملحق الموجود بآخر هذا الكتاب] .

(٢) الفهرست ص ٢٣٨ س ٣ ؛ ٢٤٣ ، ٢ ؛ ٢٥٥ ، ٢٢ ؛ ٢٧١ ، ١١ ؛ ٢٩٩ ، ١٣ ؛ وغير ذلك . وراجع أيضا ياقوت ، طبع مرجليوث جـ ٥ ص ٩٢ س ٣ حيث يقول : «أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة» ؛ كذلك ترد تسمية أخرى هى «علوم الحكماء» فى مواضع كثيرة .

(٣) والكتب الهندية أيضا فى بعض الفروع ، راجع القفطى ، طبع ليرت ص ٣٦٧ س ١ .

(٤) الفهرست ص ١٦٩ س ٣ : « كان متفلسفاً قرأ كتب الأوائل » .

(٥) الفهرست ص ٢٦١ س ٢٥ : « علوم القدماء والعرب » . وراجع القفطى طبع ليرت ص ٧٧ س ١٠ .

(٦) الفهرست : ص ١٣٨ س ٦ : « العلوم القديمة والحديثة » ؛ ص ٣٠٣ س ٢٢ : « العلوم القديمة والمحدثة » .

(٧) يعرف ابن طملوس (من جزيرة شقر من أعمال بلنسية باسبانيا ، المتوفى سنة ٦٢٠ هـ) =

الأوائل هذه الرياضيات ، والطبيعيـــات والالهيات مما اشتملت عليه دائرة معارف اليونان ، أى الفروع المختلفة من رياضة وفلسفة وطبيعة وطب وفلك وموسيقى وما إليها . ونظراً إلى أن الاشتغال بهذه العلوم قد ارتبط بالتقاليد الأفلاطونية المحدثة ، فقد أدخل فى جملة علوم الأوائل وعلوم الفلاسفة ممارسة علوم السحر والطلسمات والنارنجيات(١) ، إلى جانب علم التنجيم .

وعلى الرغم مما لقيته هذه العلوم من عناية كبيرة منذ القرن الثانى للهجرة فى البيئات الدينية الاسلامية ، عناية حث عليها الخلفاء العباسيون (٢) وشملوها برعايتهم ، فقد ظلت دائماً طائفة من أهل السنة المتشددين تنظر فى شيء

=علوم الأوائل بما يلى : « أعنى التى هى مشتركة فى جميع الأمم وجميع الملل . وهى التى تنسب إلى الفلاسفة (فى المخطوطة : الفلسفة) وتسمى الفلسفة (أى أنها عنده العلوم التى ليست بذات طابع إسلامى خاص) » . وإنى لأدين بالفضل فى استخدام كتاب ابن طملوس للاستاذ ميجيل اسين بلاثيوس (بمدريد) الذى جعل النسخة التى انتسخها من مخطوطة الاسكوريال تحت تصرفى . راجع فيما يتعلق بابن طملوس وكتابه مقالة اسين بلاثيوس فى المجلة التونسية Revue Tunisienne سنة ١٩٠٨ ص ٤٧٤ — ص ٤٧٩ .

(١) يقول ابن النديم عن أنواع السحر المختلفة إنه « علم فاشى ظاهر فى الفلاسفة » (ص ٣٠٩ س ١١) . وكل الكتب الاسلامية تدخله فى جملة علوم الفلاسفة . ويرى أبو بكر الرازى (المتوفى فيما بين سنة ٣١١ وسنة ٣٢٠ تقريباً) أنه لا يجوز « أن يسمى الانسان فيلسوفاً إلا أن يصح له علم صناعة الكيمياء » (الفهرست ص ٣٥١ س ٢٥) . ويعتبر عبد الوهاب الشعرانى (المتوفى سنة ٩٧٣ هـ) المتصوف بكراهته « لتعلم علم الحرف علم الرمل والهندسة والسيمياء ، وغير ذلك من علوم الفلاسفة » (أى أنه يجعل الهندسة فى مستوى السحر) فى كتابه « لطائف المنن » (القاهرة ، المطبعة الميمنية سنة ١٣٢١ هـ) ج ٢ ص ٤٤ .

(٢) تذكر الروايات المتأخرة أن الخليفة المعتضد (سنة ٢٧٩ — سنة ٢٨٩) ، الذى كان حريصاً على أن يحيط نفسه بالمشتغلين بعلوم الأوائل ، قد عاقب أحمد بن الطيب السرخسى الفيلسوف تلميذ الكندى عقاباً شديداً (القتل) ، بعد أن كان زمناً طويلا من أخص خاصته ، لأن السرخسى أراد أن يجره إلى الالحاد . فيقولون إن الخليفة قال حين لامه أحدهم على قتل السرخسى : « ويحك ! انه دعانى إلى الالحاد ؟ فقلت له : ياهذا ، أنا ابن عم صاحب هذه الشريعة ، وأنا الآن منتصب منصبه ، فألحد حتى أكون من ؟ » (ياقوت طبع مرجليوث ج ١ ص ١٥٩ س ٧ — ٩) وأرجح من هذه الرواية بكثير الرواية القديمة (الفهرست ص ٢٦٢ س ١ ؛ وراجع القفطى ص ٧٧ س ١٤ ومابعده) التى تقول بأن العقاب الشديد (القتل) الذى عوقب به السرخسى يرجع إلى إذاعته ما أفضى به اليه الخليفة من أغراض سرية [تتعلق بالقاسم بن عبيدالله وبدر غلام المعتضد] .

من الشك وعدم الثقة والاطمئنان إلى هؤلاء الذين قيل فى أحدهم :

فارقت علم الشافعى ومالك   وشرعت فى الإسلام رأى دقلس [(١)]

وما أسهل ما يتهم رجل مثل على بن عبيدة الريحانى ، وهو من خاصة المأمون [(٢)] أو أبى زيد البلخى بالزندقة [(٣)]، لا لشىء إلا لأنهما فى كتبهما يتجهان اتجاهاً فلسفياً [(٤)].

وكلما ازدادت شوكة أهل السنة المتشددين ، كلما كان عدم الثقة لدى البيئات الدينية فى شرق الإسلام بإزاء الاشتغال بعلوم الأوائل أشد وأعنف وأقدم مثل لذلك ما شعر به الكندى الفيلسوف من قلق وخوف بعد عودة سلطان أهل السنة فى عهد المتوكل . ولكن هذه المضايقات لم تفلح لحسن الحظ فى أن تجعل العناية المستمرة بهذه العلوم تضيع سدى .

ولم يكن هذا النحو من عدم الثقة خاصاً بالأبحاث الفلسفية بمعناها الدقيق وحدها .

فانا نرى الغزالى يشكو [(٥)] من أن رجال الدين ينفرون من علوم كالحساب والمنطق نفوراً طبيعياً ، لا لشىء إلا لأنهما من علوم الفلاسفة الملحدين ، مع أنها لا تتعرض للمذاهب الدينية أدنى تعرض إن بنفيها أو

---

(١) نحن نصحح كلمة « رقاس » الموجودة فى النص ، والتى رأى مرجليوث أنها اسم برقلس محرفا ، بكلمة « دقلس » . راجع فيما يتعلق بتصحيفات اسم امبادوكليس فى المؤلفات العربية ما كتبه د . كوفن D. Kaufmann تحت عنوان « دراسات حول سليمان بن جبرول » *Studien über Salomon ibn Gabirol* ، بودابست سنة ١٨٩٩ س ٤ ؛ وراجع « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٦٤ ص ٣٦٢ س ٢٧ .

(٢) ياقوت ، طبع مرجليوث ج ٢ ص ٣٣ س ١٢ .

(٣) الفهرست ص ١١٩ س ١٣ : « يسلك فى تصنيفاته وتأليفاته طريق الحكمة ، وكان يرمى بالزندقة » .

(٤) الكتاب السابق ص ١٣٨ س ١١ .

(٥) سنرى فيما بعد أن الغزالى فى أحد كتبه المتأخرة ، لا يعتبر هذا النحو من عدم الثقة خالياً من كل مبرر يبرره .

باثباتها[١]. فاسم « الفلسفة » هو وحده الذى ينفرهم من كل ما اتصل بالفلسفة من علوم ، مهما كان أمر هذا الاتصال . ومثلهم فى هذا مثل من يخطب فتاة جميلة ، « فاذا ذكر أن اسمها اسم بعض الهنود أو السودان المستقبحين نفر الطبع عنها لقبح الاسم » وهو يأخذ عليهم هذا العناد والاصرار على تجنب علوم الأوائل ومعارضتها ، ويعده خطأ منهم بالقدر الذى هم به محتاجون فى علومهم الخاصة إلى علمى الهندسة والمنطق [٢].

ولا نستطيع أن نعتبر المحاولة التى قام بها المرسى[٣] المفسّر ، أحد معاصرى ياقوت ، من أجل التدليل على أن القرآن قد تضمن الحث على تعلم علوم الأوائل حتى المنطق منها والرياضيات والطب والفلك وأشباهها ، كما تضمن الاشارة إلى مختلف أنواع الحرف ، وفروع الصناعات : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (٦ : ٣٨) [٤] ، نقول لا يمكننا أن ننظر إلى هذه المحاولة إلا باعتبارها خاطرا لطيفاً لا أكثر ولا أقل .

أما المسلم الصالح فعليه أن يتجنب هذه العلوم أشد التجنب باعتبارها خطراً على الدين . ومن ثم لذ للناس القول بأن النبى إنما عنى هذه العلوم حين

---

(١) « معيار العلم » (طبعة القاهرة ، مطبعة كردستان سنة ١٣٢٩) ص ١١٧ : « وحق أن علم الحساب والمنطق الذى ليس فيه تعرض المذاهب بنفى ولا إثبات إذا قيل إنه من علوم الفلاسفة الملحدين نفر طباع أهل الدين عنه » .

(٢) « المنقذ » (فى مجموعة طبعة القاهرة ، بالمطبعة الميمنية سنة ١٣٠٩) ص ٢٩ س ٩ : « اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق وغير ذلك مما هو ضرورى لهم » .

(٣) نقصد به من بين حاملى هذه النسبة العديدين محمد بن عبد الله بن أبى الفضل المتوفى سنة ٦٥٥ هـ ، الذى ألف تفسيرا كبيرا (السيوطى ، « طبقات المفسرين » ، طبع موررنجه Meursinge [ليدن سنة ١٨٣٩] ، تحت رقم ١٠٤ نقلا عن كتاب إرشاد الأريب لياقوت) ؛ ويذكره السيوطى فى ثبت المصادر التى أخذ عنها باعتباره مؤلفاً لتفسير انتفع به كثيراً ، دون أن يورد اسم هذا التفسير ؛ راجع بروكلمن جـ ١ ص ٣١٢ ، غير أنه لا يظهر أهميته كمفسر .

(٤) راجع ما نقله السيوطى من تفسير المرسى ، فى كتابه « الاتقان » (طبعة القاهرة سنة ١٢٧٩ بالمطبعة الكستلية) جـ ٢ ص ١٤٧ إلى ص ١٤٩ (الباب الخامس والستون) .

سأل ربه أن يعيذه « من علم لا ينفع »[١] . ونرى الماوردى (المتوفى سنة ٤٥٠ ﻫ) — وهو فى ميدان الفقه عقلية منظمة وفى ميدان التفكير الدينى معتزلى[٢] — يحذر الناس بصراحة من أن يعتبروا أقوال النبي الدينية التى يحث فيها على طلب العلم حثاً قوياً تتعلق بعلوم أخرى غير العلوم الشرعية ، كالعلوم العقلية أو العقليات[٣] . كما نرى أن تقى الدين بن تيمية الحنبلى لا يريد أن يفهم من لفظ علم إلا العلم الموروث عن النبى ، فإن ما عداه إما أن يكون غير نافع ، وإما أن لا يكون علماً مطلقاً ، وإن سمى بهذا الاسم[٤] .

والرأى الذى يقول به متوسط المتكلمين السنيين هو ، كما يلخصه ابرهيم ابن موسى الشاطبى (المتوفى سنة ٧٩٠) أن الجدير وحده بالتحصيل من العلوم هو تلك العلوم التى تكون ضرورية ظاهرة النفع للأعمال الدينية ، وما سوى ذلك فعديم الفائدة ، قد بينت التجربة العادية أنه يؤدى إلى الخروج عن الصراط المستقيم[٥] ؛ وهو يفرق فى نطاق علوم الدين نفسها بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية التى ليس لها من قيمة إلا أن

---

(١) صحيح مسلم ج ٥ ص ٣٠٧ . أما البخارى فلا يورد هذا الحديث ؛ وسند أحمد يورده فى صيغة إيجابية ج ٥ ص ٣١٨ على هذا النحو « وإنى أسألك علما نافعا ، وعملا متقبلا ، ورزقا طيبا » .

(٢) راجع مجلة « الاسلام » Der Islam ج ٣ ص ٢١٧ .

(٣) أدب الدنيا والدين (طبعة استامبول سنة ١٣٠٤) ص ٢٥ ؛ وراجع ، إذا رمت تفصيلا أكثر ، بحثى فى « كتاب معانى النفس» (برلين سنة ١٩٠٧ ، أعمال الجمعية الملكية للعلوم فى جيتنجن المجلد رقم ٩ ، العدد رقم ١) ص ٦٠ منه .

(٤) «مجموعة الرسائل الكبرى» (القاهرة ، المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٤) ج ١ ص ٢٣٨ : « العلم الموروث عن النبي صلعم هو الذى يستحق أن يسمى علما . وما سواه إما أن يكون علما فلا يكون نافعا ؛ وإما أن لا يكون علما ، وإن سمى به . ولئن كان علما نافعا فلا بد أن يكون فى ميراث محمد صلعم » .

(٥) «كتاب الموافقات» (قازان سنة ١٩٠٩) ج ١ ص ٢٦ : «وهو مشاهد فى التجربة العادية ، فان عامة المشتغلين بالعلوم التى لا تتعلق بها ثمرة تكليفية تدخل عليهم فيها الفتنة والخروج عن الصراط المستقيم » .

تكون للزينة[١] فحسب. وهم وصفوا علوم الأوائل بأنها « علوم مهجورة[٢] » و « حكمة مشوبة بكفر »[٣]، لأنها تؤدى فى النهاية إلى الكفر، أعنى إلى التعطيل، أى تجريد ذات الله من كل حسنة إيجابية[٤] وأتوا بالبينة على ذلك بأن ضربوا مثلا بواحد كعبد الله بن ناقيا[٥] (المتوفى ببغداد سنة ٤٨٥) وهو شاعر وصاحب مقامات أدبية مشهورة، فقد أفضت به تلك العلوم إلى التعطيل[٦]، ومحاربة قواعد الدين[٧]؛ أو برجل كأحمد النهرجورى (فى نهاية القرن الرابع، وبداية القرن الخامس) اللغوى الشاعر الموصوف بالقبح والقذارة، فقد كان واسع الاطلاع فى علوم الأوائل وملحداً لم يستتر

(١) الكتاب السابق ص ٤٥ فى أسفل: « من العلم ما هو من صلب العلم؛ ومنه ما هو من ملح العلم؛ ومنه ما ليس من صلبه ولا ملحه ».

(٢) الذهبى فى ترجمة ابن رشد، التى أوردها رينان فى كتابه « ابن رشد ومبادؤه » (الطبعة الرابعة بباريس سنة ١٨٨٢) ص ٤٥٨ س ٤ — س ٣ من أسفل: « ونسب إليه كثرة الاشتغال بالعلوم المهجورة من علوم الأوائل ». ويقول السيوطى فى « بغية الوعاة » (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦) ص ٢٢٤ عن حسن بن على القطان (طبيب من مرو، توفى سنة ٥٤٨): « وكان فاضلا، عالما باللغة والأدب والطب وعلوم الأوائل المهجورة، وكان ينصر مذهبهم ويميل اليهم ». قارن بذلك: « العلوم الرديئة » فى أول النص الثانى الملحق بهذا البحث.

(٣) ياقوت، طبع مرجليوث ج ٢ ص ٤٨ س ٣.

(٤) « مجموعة نصوص تتعلق بتاريخ السلجوقيين »، طبع هوتسما ج ١ ص ٨٩ س ١١ *Recueil de textes relatifs à l'histoire des Seldjoucides*.

(٥) راجع فيما يتعلق بمقاماته ما كتبه هيوار فى « المجلة الأسيوية » سنة ١٩٠٨ عدد رقم ٢ من ص ٤٣٥ إلى ص ٤٥٤؛ وبخاصة ص ٤٣٩ فى أعلاها.

(٦) السيوطى فى الكتاب المذكور ص ٢٩٢: « وكان ينسب إلى التعطيل، ومذهب الأوائل، وصنف فى ذلك مقالة »؛ ويذكر له ياقوت، طبع مرجليوث ج ٢ ص ١٦٢ س ٦ (حيث تصحح « باقيا » الموجودة فى النص، و « ماميا » الموجودة فى الاختلاف فى القراءة بكلمة « ناقياء ») كتابا اسمه « ملح الممالحة »؛ راجع ملحوظة أدبية شائقة له فى ج ٥ ص ٢١٨ س ٤ من أسفل، فى الكتاب المذكور.

(٧) ابن الأثير، « الكامل » فى أخبار سنة ٤٨٥ (طبعة بولاق ج ١٠ ص ٨٢): « يطعن على الشرائع ».

معتقداته الإلحادية[١] . فكأن الاشتغال بهذه العلوم يسير جنباً إلى جنب مع الاستخفاف بقواعد الدين وبدراسته . وثمة شخص ثالث هو ابن ثابت ابن سابور من بادرايا (توفى سنة ٥٩٦) أقام ببغداد ، وانتفع الناس بعلمه الغزير المتنوع ، واستطاع الوصول إلى الخليفة الناصر ، وأصبح وثيق الصلة به من بعد . وقد عنى هذا الخليفة ، كسائر الخلفاء العباسيين المتقدمين عليه منهم والمتأخرين[٢] ، عناية شديدة بأن تكون له مشاركة فى العلوم الشرعية ، وأن يكون فى الحديث مثلا راوية ثقة تروى عنه الأحاديث . وهو الذى أجاز أبا الفضل الأردبيلى (المتوفى سنة ٦٥٦) فى أن يروى ما تلقاه عنه من أحاديث[٣]. وألقى دروساً فى شرح مسند أحمد ابن حنبل ، وأجاز ابنه وأربعة علماء حنابلة سمح لهم بالاختلاف إلى هذه الدروس ، وأذن لهم برواية مسند ابن حنبل عنه بالاجازة[٤] . ونعود إلى ابن ثابت فنقول إنه أشرك الخليفة الطلعة الشغوف بالعلم فى علوم الأوائل ، وعن هذا الطريق جره إلى الاستخفاف بالعلوم الشرعية التى عنى بها الخليفة من قبل ، وكان فيها حاذقاً بارعاً (« وهون عليه علم الشرائع ») . فليس عجيباً إذاً أن يتهم ابن ثابت نفسه فى دينه[٥] . ولعله لم يكن صدفة واتفاقاً أن يهدى شهاب الدين عمر السهروردى المتصوف كتابه الذى حمل

---

(١) ياقوت ، الكتاب المذكور ج ٢ ص ١٢٠ س ١٢ : « وكان ... سيء المذهب، متظاهراً بالالحاد ، غير مكاتم له ... وكان قوى الطبقة فى الفلسفة وعلوم الأوائل » .

(٢) راجع كتابى «دراسات اسلامية» ج٢ ص٦٦ ، تعليق رقم٤ *Muhamm. Studien*

(٣) السبكى ، « طبقات الشافعية » ، ج ٥ ص ١٥٤ .

(٤) ابن رجب ، « طبقات الحنابلة » (مخطوط بمكتبة الجامعة بليبتسك تحت رقم ٣٧٥ برمز .D. C ، وبرقم ٧٠٨ فى فهرست فولرز) الورقة ١٤٨ أ : « وكان الخليفة الناصر لما أذن لولده الظاهر برواية مسند الامام أحمد عنه بالاجازة ، وأذن لأربعة نفر من الحنابلة بالدخول عليه للسماع ، كان عبد العزيز هذا منهم » .

(٥) « وكان متهماً فى دينه » ، هكذا يقول عنه ياقوت (طبع مرجليوث، ج ٦ ص ٢٠٨) ولعله استقى هذا من مصدر حنبلى .

فيه على الفلسفة اليونانية حملة شعواء ، ونعنى به كتاب « كشف القبائح اليونانية ورشف النصائح الإيمانية » ، إلى الخليفة الناصر[١]. وإن لهذا المتصوف كتاباً آخر هاجم فيه الفلسفة عنوانه « أدلة العيان على البرهان فى الرد على الفلاسفة بالقرآن »[٢]. فكأن كل من يظهر أية عناية بعلوم الأوائل إذاً سرعان ما يتهم فى دينه[٣] . وكان حرص أهل السنة ، وخصوصاً الحنابلة

---

(١) بروكلمن ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) ذكره أبو الاخلاص الغنيمى فى كتابه « رسالة فى بيان ألويته صلعم » (مخطوطة لاندبرج ، جامعة ييل Yale) ورقة رقم ١٠ ب .

[نلاحظ أن مؤلف هذا البحث قد أخطأ فى ترجمته لعنوان هذا الكتاب . فقد ترجمه هكذا "Beweise des Augenscheines für die Demonstration in bezug auf die Wiederlegung der Philosophen durch den Koran" أى « أدلة البصر من أجل البرهنة فيما يختص بالرد على الفلاسفة بالقرآن » وهى ترجمة غير صحيحة فضلا عما فيها من غموض . والخطأ فيها يرجع إلى أن المؤلف فهم كلمة « عيان » بمعنى إبصار العين ، وليس الى هذا المعنى قصد السهروردى فى هذا السياق . وإنما « العيان » هنا مأخوذ بالمعنى الذى لهذه الكلمة عند الصوفية ، أى بمعنى الكشف والذوق . وهذا ظاهر من مقابلة « العيان » بـ « البرهان » . والمؤلف لم يدرك أن « العيان » هنا يقابل « البرهان » ، ويعارضه . والواقع أن الصوفية يعارضون البرهان ، الذى هو أداة المعرفة عند الفلاسفة ، بالعيان ، الذى هو أداة المعرفة عند المتصوفين . راجع مثلا مايقوله قطب الدين الشيرازى فى « شرحه لحكمة الاشراق » للسهروردى (طبع طهران سنة ١٣١٣ هـ) ص ٢٦ س ٩ — ١٠ : « أصل القواعد الاشراقية ومأخذها هو الكشف والعيان . وأصل قواعد المشائين البحث والبرهان » . فكأن معنى عنوان كتاب السهروردى هو ما يأتى : حجج المعرفة الذوقية على المعرفة المنطقية فيما يتعلق بالرد على الفلاسفة بالقرآن . وطبيعى أن تكون كلمة « عيان » هنا بمعنى « كشف » و « ذوق » فيما يضاد « البرهان » بمعنى « المنطق » ، ما دام هذا كلام السهروردى المتصوف ، صاحب فلسفة الاشراق] .

(٣) ياقوت ، الكتاب المذكور ج ٥ ص ١١٦ ، السطر قبل الأخير: « وقدح فى دينه » . ومن العجيب أنه وجد أناس يقولون عن النحويين ، وهم مع ذلك أصحاب علم يعترف رجال الدين بأهميته كعلم مساعد ، إنهم فى الغالب ليسوا متدينين : « وقل مايكون النحوى ديناً » ، الكتاب المذكور ج ٥ ص ٢٢٥ ، س ٨ من أسفل (عن السمعانى) . ولعل هذا راجع إلى أن المتدينين يعتقدون أنهم يرون فى اللغويين والنحاة كبرا وغطرسة . وهذه الملاحظة أخذها أبو طالب المكى (المتوفى سنة ٣٨٦ ، « قوت القلوب » [القاهرة سنة ١٣١٠] ج ١ ص ١٦٦) عن أحد أساتذته فقال: « وذكرت العربية عند القاسم بن المخيمرة فقال أولها =

طبعاً ، على تعقب الملحدين يتجه إلى الكشف عن هؤلاء الملحدين حتى بين المشتغلين بعلوم الدين ممن يتبعون مذهباً معيناً من مذاهب الفقه . ويذكرون كمثال لرجال الدين المتأثرين بالعلوم اليونانية ، وكأنهم يريدون بهذا المثال التحذير ، اسماعيل بن على بن حسين الأزجي البغدادي الحنبلي (ولد سنة ٥٤٩، وتوفى سنة ٦١٠) ، تلميذ أبي الفتح بن المنّي الحنبلي المحدّث (المتوفى سنة ٥٨٣) الذي يعتبر من أكبر أئمة الحنابلة وحلقة رئيسية من حلقات سلسلة الفقهاء الحنابلة[١] . والذي خلفه في التدريس بالمأمونية هو اسماعيل الأزجي الذي قام بالتدريس أيضاً في جامع القصر ، حيث كان يجتمع شيوخ الدين يتذاكرون المسائل ويتبادلون الآراء ؛ كما عني أيضاً بالقاء دروس في بيته ، كان يقبل على سماعها الكثيرون . والناس يشيدون بما كان له من قدرة في الفقه فائقة ، ومعرفة بالخلافيات واســـعة ، ومهارة في الأصولين

= كبر وآخرها بغى . وقال بعض السلف : النحو يذهب الخشوع من القلب . وقال آخر : من أحب أن يزدرى الناس كلهم فليتعلم العربية » . ويدل على ما كان ثمة من سخط على تحذلق النحاة ، وإلى فعل عكسى جدلى ضد غرورهم بأنفسهم ، ذلك الغرور الذى عبروا عنـه فى مقطوعاتهم الهجائية وعبـاراتهم المأثورة ، نقول يدل على ذلك هذا القول المأثور : « من أكثر من النحو حمقه » (راجع « محاضر جلسات أكادمية فينا SBWA » المجلد رقم ٧٢ [سنة ١٨٧٢] ص ٥٨٨) . ويروى عن عبد الله بن تبان المالـكى المشهور (المتوفى سنة ٣٧١) أنه قال : خذ من النحو ، فدع ؟ وخذ من الشعر ، فأقل ؟ وخذ من العلم فأكثر . فما أكثر أحد من النحو إلا حمقـه ؟ ولا من الشعر إلا أرذله ؟ ولا من العلم إلا شرفه » (ابن فرحون ، «الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب » ، [طبع فس Fes] ص ١٣٢) . وهناك من يقولون أن غالبيـة النحويين تميل الى التشيع لعلى (الفرى ج ١ ص ٨٢٩ س ١٣) . ولعل هذا راجع الى أن مايروى عن نشأة النحو العربى فيـه ميل الى على ؛ راجع « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٥٠ ص ٤٩٢ .

(١) راجع ابن رجب ، الـكتاب المذكور ، ورقة رقم ٨٠ ب ، تحت اسم : نصر بن فتيان بن مطر ... أبو الفتح ابن المنى ، ناصح الاسلام : « وفقهاء الحنابلة اليوم فى سائر البلاد يرجعون اليه وإلى أصحابه . قلت : وإلى يومنا هذا الأمر على ذلك . فان أهل زماننا ومن قبلهم ، إنما يرجعون فى الفقه من جهة الشيوخ والـكتب الى الشيخين موفق الدين المقدسى ومجد الدين ابن تيمية الحرانى . فأما الشيخ موفق الدين فهو تلميذ ابن المنى ، وعنه أخذ الفقه . وأما ابن تيمية فهو تلميذ تلميذه أبى بكر الحلاوى » .

(أصول الفقه ، وأصول الكلام) والجدل ، إلى جانب إشادتهم بحسن إلقائه وبراعته فى المناظرة ، ولهذا فان مترجمه يصفه بأنه فى جميع هذه الأشياء « أوحد زمانه » . وكان له فى كل هذه المعارف والعلوم تلاميذ كثيرون ، وألف الكثير من الكتب . وقد أولاه الخليفة الناصر عطفه ورعايته ، وأسند اليه المناصب الرفيعة ، ولكنه لم يحقق فيها مع ذلك ما كان ينتظر منه وما وضع فيه من رجاء . وكان من بعد ناظراً فى ديوان الطبق مدة من الزمان يسيرة ، إلا أنه لم يكن فيه حميد السيرة « فعزل واعتقل مدة بالديوان ثم أطلق ولزم منزله » . أما عن موقفه من الدين فيتحدث ابن النجار[1] (المتوفى سنة ٦٤٣) على النحو الآتى : « قال [أى ابن النجار] ولم يكن فى دينه بذاك [أى لم يكن صحيح الايمان] . ذكر لى ولده أبو طالب عبد الله فى معرض المدح أنه [أى أباه] قرأ المنطق والفلسفة على ابن مَرْقُش الطبيب النصرانى ، ولم يكن فى زمانه أعلم منه بتلك العلوم . وإنه كان يتردد إليه إلى بيعة النصارى . قال [أى ابن النجار] وسمعت من أثق به من العلماء يذكر أنه صنف كتاباً سماه « نواميس الأنبياء » يذكر فيه أنهم كانوا حكماء كهرمس وارسطاليس . قال وسألت بعض تلامذته الخصيصين به عن ذلك ، فما أثبته ولا أنكره . وقال كان متسمحاً فى دينه ، متلاعباً به . ولم يزد على ذلك . قال وكان دائماً يقع فى الحديث وفى رواته ، ويقول : هم جهال لا يعرفون العلوم العقلية ، ولا معانى الحديث الحقيقية ، بل هم مع اللفظ الظاهر ؛ ويذمهم ويطعن عليهم » . واستفتى فى أمر رجل يهودى ببغداد تزوج بمسلمة وأولدها ولدين ، فخشى اليهودى العقاب عن هذا الزواج غير المشروع فأسلم . (فالمسألة هى: ما الحكم فى أمر هذا الرجل؟) . فأفتى اسماعيل بأن قال إن « الاسلام يجبّ ماقبله[2] »

---

(١) هو الذى كتب ذيلا « لتاريخ بغداد » للخطيب البغدادى ؛ راجع بروكلمن ج ١ ص ٣٦٠ ، وراجع امارى فى « المجلة الأسيوية » سنة ١٩٠٨ ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) حديث للنبى ؛ راجع « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٥٠ ص ١٥١ السطر الأخير .

(أى أن الدخول فى الاسلام يمحو ما ارتكب من ذنب من قبل).[1]

فكل انحراف عن طريق رجال الدين الرئيسى كان القوم يعزون السبب فيه إلى علوم الأوائل ، إذا كان صاحب هذا الانحراف قد اتصل بها عن قرب أو عن بعد. فتاج الدين السبكى يرى أن السبب الذى جر الخليفة المأمون إلى القول بخلق القرآن هو هذا المقدار الضئيل الذى عرفه من علوم الأوائل[2] ويذكر لنا أن العوام (أى الرأى العام) يرجعون أقوال الغزالى فى مسائل كثيرة مما لا يتفق ومذهب أهل السنة فى عصره — والغزالى لم يستطع مطلقاً أن يتحلل من ماضيه الفلسفى ، على الرغم مما له من أقوال تناقض ذلك[3] — نقول إنهم يرجعون هذه الأقوال إلى تأثره بمذهب الأوائل.[4]

فلا عجب إذاً أن نرى واحداً من الحنابلة المتعصبين مثل الذهبى يعقب على المدح الكثير الذى سخا به على علم القاسم بن أحمد بن موفق اللورقى (المتوفى سنة ٦٦١) بقوله : « فياليته ترك الاشتغال بعلوم الأوائل ، فما هى إلا مرض فى الدين ، أو هلاك . فقل من نجا منهم (أى من المشتغلين بها)[5]» . ومثل هذا الرأى لا يقول به هذا الحنبلى المتعصب وحده فحسب ، بل إنا نرى أحمد بن يحيى بن المرتضى (المتوفى سنة ٨٤٠) ، أحد رجال الزيدية وممن كتب كثيراً فى فروع شتى كأصحاب دوائر المعارف ، وهو فى اتجاهه الدينى الفلسفى معتزلى ، وله فى هذه الفرقة مختصر تاريخى عظيم الفائدة ، نقول

---

(١) ابن رجب ، الكتاب المذكور (راجع النص بأكمله فى النص رقم ١ من النصوص الملحقة بهذا البحث) .

(٢) « طبقات الشافعية » ج ١ ص ٢١٨ س ٢ : « وجره القليل الذى كان يدريه من علوم الأوائل إلى القول بخلق القرآن » .

(٣) راجع كتابى « محاضرات فى الاسلام » ص ١٩٨ (١٦ : ١) *Vorlesungen über den Islam* .

(٤) « طبقات الشافعية » ج ٥ ص ١١٠ س ١٧ : « ينسبون ذلك إلى مذهب الأوائل » .

(٥) أورده السيوطى فى « بغية الوعاة » ص ٣٧٥ .

نرى ابن المرتضى عند ذكره لأبى الحسين البصرى (المتوفى سنة ٤٣٦)[١] بعد أن سرد أسماء كتبه يقول إن إصحاب أبى هاشم أخذوا عليه شيئين : « أحدهما أنه دنس نفسه بشيء من الفلسفة وكلام الأوائل ؛ . . . الخ[٢] » .

وكان طبيعياً من أجل هذا كله أن يطالب أهل السنة الشباب الراغبين فى العلم أن يتجنبوا الاتصال بأمثال هؤلاء (المشتغلين بعلوم الأوائل) قدر المستطاع ، وأن يتجنبوا خصوصاً مايجرونه عليهم من خطر محقق كأساتذة فيروى أبو سعد بن السمعانى ، أحد كتاب التراجم ، أنه استمع إلى دروس على بن عبد الله بن أبى جراده (المتوفى حوالى سنة ٥٤٠) أثناء رحلته الدراسية إلى حلب . فذات مرة رآه بعض الصالحين يخرج من دار هذا الشيخ ، فسأله عن سبب زيارته له . فلما أخبره السمعانى بأنه كان يسمع الحديث من ابن أبى جرادة ، غضب الرجل الصالح غضباً شديداً وقال : « ذاك يقرأ عليه الحديث ! » قلت « ولم ؟ هل هو إلا متشيع يرى رأى الحلبيين ؟ » فقال لى : « ليته اقتصر على هذا ، بل يقول بالنجوم ، ويرى رأى الأوائل » .

فاذا كانت الحال على هذا النحو ، فمن السهل أن نفهم كيف أن الكثير ، ممن كانوا يحرصون على حسن السمعة ، كانوا يسبلون قناعاً على دراساتهم الفلسفية ، مظهرين اشتغالهم بها تحت ستار علم من العلوم الحسنة السمعة . وأوضح مثال لهذا ، وإن لم يكن هو المثال الوحيد ، محمد بن على بن الطيب (المتوفى سنة ٤٣٦) . فيذكرون عنه إنه « كان أماماً عالماً بعلم كلام الأوائل » ، إلا أنه خشى أهل زمانه فلم يشأ الظهور صراحة بمظهر الفيلسوف ، فأخرج مذهبه فى صورة المذاهب الكلامية ، التى لم تكن مع ذلك حائزة لرضى أهل

(١) راجع مجلة « الاسلام » Der Islam المجلد رقم ٣ ص ٢١٦ السطر الأخير .

(٢) المعتزلة ص ٧١ س ١٠٢ .

(٣) راجع مقاله زوبرنهيم Sobernheim ، « الشيعة فى حلب » ، فى مجلة « الاسلام » المجلد رقم ٦ ص ٩٥ ومابعدها .

(٤) ياقوت ، طبع مرجليوث جـ ٥ ص ٢٤٤ فى أسفل .

السنة فى عصره هى الأخرى . ولكنها كانت على كل حال أقل خطراً من الفلسفة الصريحة ، لأنها على الأقل قد نمت فى تربة إسلامية[١] .

ومن أجل هذا كله فقد كان مما يثير الغبطة ويبعث على الرضا ، أن يقال إن واحداً من الفلاسفة قد رجع ساعة موته عن ضلالات الفلسفة وأكاذيبها ، وأنكر هداته الروحيين الذين استهداهم طوال محياه . فيروى مثل هذا فى لهجة يمازجها سرور المنتصر الظافر ، عن عالم كفيف البصر ، هو حسن بن محمد بن نجاء الأربلى (المتوفى سنة ٦٦٠) ، الذى عاصر ابن خلكان ، وجرت بينه وبينه مقابلة لم تكن طيبة . كان حسن هذا فيلسوفاً رافضياً ، وفى داره بدمشق كان يجتمع خلق كثير من المسلمين وأهل الكتاب وأتباع الفلسفة كى يأخذوا عنه ويتعلموا منه . فيروون أن آخر كلمة قالها ساعة الموت هى : « صدق الله العظيم ، وكذب ابن سينا[٢] » .

وطبيعى أن يلازم عدم ثقة رجال الدين بمن يشتغلون بعلوم الأوائل كراهيتهم للكتب التى تتضمن هذه العلوم . بل كان ممكناً بسهولة أن يؤدى مجرد اقتنائها الى إتهام صاحبها بميله إلى الزندقة . ولعل الجاحظ يشير إلى أمثال هذه الكتب ، حين يذكر من بين الأشياء التى تخفى بعناية عن عيون الناس ، إلى جانب « الشراب المكروه » ، « الكتاب المتهم »[٣]. وكان على النساخ المحترفين ببغداد سنة ٢٧٧ هـ أن يقسموا بأنهم لن يشتغلوا بانتساخ أى كتاب فى الفلسفة[٤]. وفى درس عام ألقاه عبد القادر الجيلانى المتصوف الكبير حمل

---

(١) القفطى ، طبع ليبرت ص ٢٩٣ س ٢٠ : « كان إماماً عالماً بعلم كلام الأوائل ... وكان يتقى أهل زمانه فى التظاهر به ، فأخرج ما عنده فى صورة متكلمى الملة الاسلامية » .

(٢) السيوطى ، « بغية الوعاة » ص ٢٦٦ . كذلك يدعى الذهبى ، وهو حنبلى متعصب ، أن أبا المعالى الجوينى (أستاذ الغزالى) ندم ، وهو على فراش الموت ، على اشتغاله بعلم الكلام ، وأن آلام علته سببها هذه الدراسة الآثمة ؛ أورده أبو المحاسن فى تاريخه ، طبع پوپر Popper المجلد الثانى ، جـ ٢ ، ص ٢٧٧ ، س ١٠ .

(٣) الجاحظ ، « البخلاء » ، طبع فان فلوتن ص ٨٧ س ٢ .

(٤) ابن الأثير ، أخبار سنة ٢٧٧ (طبعة بولاق جـ٧ ص١٦٢) . وكان هذا القرار =

على أحد القضاة لا لشيء إلا لأنه سمح بأن تكون فى مكتبته مؤلفات الفلاسفة العرب[١]. وثمة مسألة لا تخلو من الفكاهة، وتلك مسألة الأمر باحراق كتب الأوائل التى كانت عند عبد السلام بن عبد الوهاب الملقب بركن الدين (المتوفى سنة ٦١١)، حفيد هذا المتصوف الحنبلى الكبير (عبد القادر الجيلانى)، لأنها كانت تشتمل على الحاديات. وكانت محاكمته عملا من أعمال الانتقام الذى قام به الوزير ابن يونس، لأن «ابن يونس كان جاراً لأولاد الشيخ عبد القادر فى حال فقره، فكانوا يؤذونه غاية الأذى». وكان عبدالسلام رقيق الدين فاسقاً؛ حتى كان أبوه يدا عبه بموقفه بازاء الدين ويتهكم عليه. ولما كان عبد السلام غير ضابط للسانه، فيبدو أنه لم يكن يخفى آراءه ومعتقداته. ويظهر أنه كان لمؤامرات خصمه أبى الفرج بن الجوزى المشهور دخلٌ فى أن عبد السلام بوجه خاص كان هو المقصود من الاضطهاد الذى لحق أسرة الصوفى الكبير (الجيلانى) — فقد زج بالكثير من أفرادها فى سجون واسط.

ولما فتشت داره وجد فيها كتب من كتب الفلاسفة ورسائل إخوان الصفا، وكتب فى السحر والنارنجيات، وعبادة النجوم، مما عنيت به الأفلاطونية المحدثة الشرقية المضمحلة، وصلوات موجهة إلى الكواكب[٢] وأشباه ذلك وكلها مكتوبة بخط عبد السلام. فاستدعى عبد السلام وعبثاً حاول تبرئة نفسه بقوله أنه لا يؤمن بهذه الأشياء وإنما هو نسخها ليرد عليها فحسب، فقد أُمِرَ باحراق كتبه، ولأجل ذلك أقيمت نار عظيمة أمام مسجد مجاور لجامع

= يشمل كتب الكلام أيضا.

(١) أورده مرجليوث، «مجلة الجمعية الأسيوية الملكية» سنة ١٩٠٧ ص ٢٧٤ السطر الأخير.

(٢) راجع بحث دى خويه الذى ظهر فى «أعمال المؤتمر السادس المستشرقين»، سنة ١٨٨٣، الجزء الثانى، القسم الأول (ليدن سنة ١٨٨٥)، ص ٢٩٢، ٣٠٠ وما يليها.

الخليفة ، وجلس القضاة والعلماء ومن بينهم ابن الجوزى — على سطح المسجد وتجمع عدد كبير من الناس وقفوا أمام المسجد فى صفوف ، وألقيت الكتب من فوق سطح المسجد ، فى النار . وقام من يقرأ مضمون هذه الكتب كتاباً كتاباً ، ويقول — كل هذا وعبد السلام نفسه حاضر — العنوا مَنْ كتب هذه الكتب ، ومن اعتقد بما جاء فيها ؛ فكان العامة يصيحون باللعن حتى تعدى هذا اللعن إلى الشيخ عبد القادر نفسه ، بل وإلى الامام أحمد وكانت غضبة (على الكفار والملحدين) ولا غضبة يوم بدر . وقيلت الأشعار فى هجاء هذا الملحد ، فيها تهكم وسخرية من عبادة النجوم .

وحكم على عبد السلام بأنه فاسق ، وجرد من طيلسان العلماء ، وزج به فى السجن ، وأخرجت مدرسة عبد القادر من يده ، وأسندت إلى ابن الجوزى . فلما أطلق سراحه بعد مدة من الزمن ، شهد كتابة بأن الاسلام حق وأنه مسلم مؤمن وعدَّد ضلالاته السابقة . ولمـــا سقط ابن يونس ، ردت إليه المدرسة التى انتزعت من يده من قبل . وهنا كان على ابن الجوزى أن يتقهقر وبسعى من عبد السلام قبض عليه ، وأرسل إلى واسط ، وزج به فى السجن هناك . ولكن أطلق سراحه بعد خمس سنوات بتوسط من والدة الخليفة ، ودخل بغداد وسط فرح الجمهور . أما عبد السلام فقد أمضى بقية حياته فى رضى من الخليفة تارة ، وسخط تارة أخرى (١) .

ولما تولى المستنجد الخلافة ورغب فى القضاء على ما كان فى الادارة من سوء وفساد ، قبض على أحد القضاة « وكان بئس الحاكم ، وأخذ منه مالا كثيراً . وأخذت كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة . فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا ، وكتاب إخوان الصفاء ، وما يشا كلها (٢) »

---

(١) ابن رجب ، الكتاب المذكور ورقة رقم ١١٦ أ ومابعدها ، وهو النص رقم ٢ من النصوص الملحقة بهذا البحث .

(٢) ابن الأثير ، أخبار سنة ٥٥٥ (طبعة بولاق ج ١١ ص ١٠٤) .

— ٢ —

وكان طبيعياً أن تتجه كراهية أهل السنة أولا وبالذات إلى الإلاهيات أرسطو ، لأن مقدماتها ونتائجها كانت تعتبر متعارضة أشد التعارض مع مقتضيات عقائد الاسلام ، على الرغم مما بذله الفلاسفة الاسلاميون من عدة محاولات للتوفيق بين كلتيهما . ولم يقف الأمر عندها بل تعداها إلى ما هو تمهيد لها ومقدمة ، فكان بدوره موضع الكراهية من نفوس أهل السنة . إذ لم يكن فى وسعهم إلا أن يخافوا أن تكون هذه العلوم ، التى لا تتعرض للدين فى جوهرها ، قادرة على الاغراء بالتقدم فى طريق الفلسفة .

وأول هذه العلوم الرياضيات . أما الحساب فلم يكن لأحد أن يذمه إلا قليلا جداً ، لأن الاشتغال به من مستلزمات علم الفرائض ، فالشريعة إذاً تقضى بتعلمه . والحسابات المعقدة التى يفترضها ممارسة هذا الفرع من فروع التشريع ، تجعل الحساب علماً مساعداً للخبراء فى التوريث ، لا يمكن لهم أن يستغنوا عنه . ولهذا فإن من المعتاد أن يوصف الواحد منهم بوصف « الفرضى الحاسب » ، أى العالم بأحوال التوريث والعالم بالحساب(١) فى آن واحد .

وعلى العكس من ذلك كانت الهندسة على وجه التخصيص من بين العلوم الرياضية مبعثاً لبلبلة خواطر أهل السنة باعتبارها فرعا مميزاً يحمل طابع علوم الأوائل . فكان القوم يشعرون بشىء من القلق بازاء الأشكال الهندسية . فهذه هى الأشكال الدائرية المعروفة باسم « دوائر العروض » المستخدمة فى

---

(١) « المجلة الألمانية لنقد الكتب » DLZ ص ٧١٩ ؛ راجع بروكلمن جـ ٢ ص ١٦٧ (سبط المارديني) ، وراجع الكتاب نفسه ص ٢١١ (أبو العلاء البهشتى) . [يشير المؤلف هنا إلى كتاب « وسيلة الطلاب فى معرفة الأوقات بالحساب » للمارديني الموجود منه نسخة خطية بمنشن واستامبول ، وإلى كتاب « ما لابد للفقيه من الحساب » للبهشتى الموجود منه نسخة خطية بالمتحف البريطانى برقم ١٣٤٦ وفى بتقيا برقم ٦١٠ فى ملحق فهرست كتبها] .

شرح علم العروض ، نراها قد بدت لسذّج الايمان فى زمان أبى نواس كأنها زندقة ، وحكم بالحاد واحد كان لديه كتاب فيه رسومات عروضية [١]. وفى العصور المتأخرة أثارت الأشكال الهندسية الموجودة فى أحد كتب ابن الهيثم الفلكية الخوف فى نفس أحد المتعصبين [٢].

وإنا لنجد رأى أهل السنة فى عصر متقدم ضد الهندسة والبرهان القياسى معاً ، قد عبر عنه فى رسالة هزلية بعث بها أحد ظرفاء بغداد وهو احمد بن ثوابة (المتوفى حوالى سنة ٢٧٣ — ٢٧٧) إلى صديق له كان قد أرسل إليه معلماً نصرانياً أولا ، ثم آخر مسلماً من بعد ، كى يعلماه مبادىء الهندسة . ففى مستهل هذه الرسالة مباشرة يسخر التلميذ بمبادىء هذا العلم الذى أريد له تعلمه كى يصير زنديقا ، ويلوم صديقه لأنه قذفه بهذين الرجلين من أجل زعزعة إيمانه الدينى بطريقة مُقَنَّعة .[٣] نعم إن الموقف كله قد اخترع اختراعا من أجل الدعابة والمزاح ، إلا أن هذا المزاح وتلك الدعابة تشيران إلى رأى سائد فى طبقات واسعة ، أراد هذا الماجن العابث أن يسخر بسذاجة إيمانها ويعبث .

وبعد هذا العصر بزمان ليس بالطويل نرى أبا الحسين بن فارس يعبر حقا عن شعور عام موجود فى الدوائر السنية ، حين يتحدث عن خطر الهندسة على الدين . ففى كتابه الذى أهداه إلى الوزير العالم الصاحب بن عبّاد (وهو من أعداء علوم الأوائل ، كما سنرى بعد حين) ، ونعنى به كتاب « الصاحبي فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها » ، يتحدث فى أحد مواضعه ، وقد أوضحت هذا الموضع وشرحته من قبل فى كتابى « دراسات إسلامية » ج ١ ص ٢١٤ ، عما اختصت به العرب من العلوم ، وفيه يرد على هؤلاء الذين

---

(١) الأغانى ج ١٧ ص ١٨ س ٩ من أسفل .

(٢) القفطي طبع ليبرت ص ٢٢٩ .

(٣) ياقوت ، الكتاب المذكور ، ج ٢ ص ٤٦ .

ينكرون على العرب، أسبقيتهم فى إيجاد نحو مفصل وشعرموزون ، ويدّعون الأسبقية فى هذا لليونان ، ذاكرين كلاما فيه نسبوه » إلى قوم (فلاسفة اليونان) ذوى أسماء منكرة [١] بتراجم [٢] بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها » . والحق أن فضل السبق فى هذا كله راجع إلى العرب ، لا « إلى هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء [٣] من الأعداد والخطوط والنقط ، التى لا أعرف لها فائدة غير أنها ، مع قلة فائدتها ، ترق الدين ، وتنتج كل مانعوذ بالله منه » .

وبودنا طبعاً أن نستمع إلى ما يقوله الغزالى فى هذا الصدد ، وهو الذى درس الرياضيات ، ولا بدوأن رأيه فى صلتها بالأمور الدينية كان هو الرأى المعتمد . يرى الغزالى أن العلوم الرياضية ، وهى مفيدة فى ذاتها ، لا « يتعلق

---

(١) كثيراً ما أشار خصوم الفلسفة فى أسلوب تهكمى إلى ما تحدثه أسماء الفلاسفة الطنانة المنكرة من روع فى النفوس تجعل الناس ينخدعون بها . فيقول الغزالى فى « تهافت الفلاسفة » (القاهرة سنة ١٣٠٢) ص ٣ س ١ : « وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسامى هائلة كسقراط وبقراط وأرسطاطاليس وأمثالهم » . وثمة مواضع أخرى أوردت فى « مجلة الدراسات اليهودية » RÉJ المجلد رقم ٣٣ ، تعليق رقم ٢ .

(٢) أما أن الفلاسفة قد بهرتهم أسماء (ترجمة معناها اسم) كتب أرسطو وهالتهم ، فهذا ما أخذه عليهم ابن قتيبة فى أدب الكاتب (طبع جرينرت Grünert ص ٣) فى أسفلها . وهذه الغرابة يجدها خصوم العلوم اليونانية فى مصطلحاتها كذلك . وأوضح مثال لهذا ما قاله أبو سعيد السيرافى فى المناظرة التى جرت بينه وبين متى بن يونس القنائى الفيلسوف فى قيمة منطق أرسطو (أوردها ياقوت ، الكتاب المذكور ، القسم الأول من الجزء الثالث ص ١١٩) . ونرى الجاحظ يسخر (« الحيوان » ج ٣ ص ١١) من مصطلحات القائلين بالجوهر الفرد (ولم يكن منهم لأنه كان من تلاميذ النظام) ؛ راجع « البخلاء » ص ١٣٩ س ١٦ ، « والبيان » ج ٢ ص ٨ س ١٨ . وفى هذه الأحوال كلها استعمل لفظ « هال » كما فعل ابن فارس هنا . كذلك يقول الجاحظ عن المانوية إنهم يريدون أن يهولوا بألفاظهم الغريبة ، فى كتاب الحيوان ج ١ ص ٢٩ س ٢٦ : « والتهويل بعمود الصبح ألخ » ؛ ثم فى الكتاب نفسه ج ٣ ص ١١٣ س ٣ من أسفل يقول : « إن الزنادقة أصحاب ألفاظ فى كتبهم وأصحاب تهويل » .

(٣) راجع أيضاً ياقوت ، الكتاب المذكور ، ج ٢ ص ٤٥ س ٢ ، حيث يذكر أن إقليدس كتب كتاباً فيه « أشكال تدل على حقائق الأشياء المعلومة والمغيبة » .

شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتا ، بل هي أمور برهانية ، لاسبيل إلى مجاحدتها » وعلى الرغم من هذا كله فقد نجمت عنها آفتان[١]. وذلك أن « من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها ، فيحسُن بسبب ذلك اعتقادُه في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم [الرياضى] ، ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ماتداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ، ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم » ! وعبثاً يقال له إن الفلسفة والدين ميدانان من ميادين المعرفة مختلفان ، وأن المرء يمكن أن يكون حاذقا في أحدهما ، دون أن يكون حاذقا في الآخر ، هذا إلى أن طريقة التدليل عند صاحب الرياضيات غيرها عندصاحب الآلهيات ، فالأول طريقته برهانية ، أما الثاني فطريقته تخمينية . ويعرف ذلك من جرّب كلام الأوائل في الرياضيات والآلهيات وخاض فيه . فاذا قيل هذا للذى وثق بالفلاسفة ثقة عمياء ، « لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، وشهوة البطالة وحبُّ التكايس على أن يصرّ على تحسين الظن بهم في العلوم كلها . فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم . فانها ، وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادىء علومهم ، يسرى إليه شرهم وشؤمهم . فقلّ من يخوض فيه [أي العلم الرياضى] إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى[٢] » .

ثم نرى الغزالى في كتاب آخر يطرد الرياضيات من دائرة العلوم التي يجوز للمسلم أن يشتغل بها طرداً فيه من العنف وعدم التحفظ الشيء الكثير . فهو في أحد كتبه[٣] يتحدث عن آفات المناظرة ، ولا يرضى بأن يكون مافي هذا

---

(١) سنورد هنا واحدة من الآفتين اللتين تحدث عنها فحسب .

(٢) « المنقذ » ص ٩ .

(٣) « فاتحة العلوم » (القاهرة ، المطبعة الحسينية ، سنة ١٣٢٢) ص٥٦ .

شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتا ، بل هي أمور برهانية ، لاسبيل إلى مجاحدتها » وعلى الرغم من هذا كله فقد نجمت عنها آفتان [١]. وذلك أن « من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها ، فيحسُن بسبب ذلك اعتقادُه في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم [الرياضي] ، ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ماتداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ، ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم » ! وعبثاً يقال له إن الفلسفة والدين ميدانان من ميادين المعرفة مختلفان ، وأن المرء يمكن أن يكون حاذقا في أحدهما ، دون أن يكون حاذقا في الآخر ، هذا إلى أن طريقة التدليل عند صاحب الرياضيات غيرها عندصاحب الآلهيات ، فالأول طريقته برهانية ، أما الثاني فطريقته تخمينية . ويعرف ذلك من جرَّب كلام الأوائل في الرياضيات والآلهيات وخاض فيه . فاذا قيل هذا للذي وثق بالفلاسفة ثقة عمياء ، « لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، وشهوة البطالة وحبُّ التكايس على أن يصرّ على تحسين الظن بهم في العلوم كلها . فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم . فانها ، وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادىء علومهم ، يسرى إليه شرهم وشؤمهم . فقلّ من يخوض فيه [أي العلم الرياضي] إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى [٢] » .

ثم نرى الغزالي في كتاب آخر يطرد الرياضيات من دائرة العلوم التي يجوز للمسلم أن يشتغل بها طرداً فيه من العنف وعدم التحفظ الشيء الكثير . فهو في أحد كتبه [٣] يتحدث عن آفات المناظرة ، ولا يرضى بأن يكون مافي هذا

---

(١) سنورد هنا واحدة من الآفتين اللتين تحدث عنهما فحسب .

(٢) « المنقذ » ص ٩ .

(٣) « فاتحة العلوم » (القاهرة ، المطبعة الحسينية ، سنة ١٣٢٢) ص ٥٦ .

الفن من فائدة تشحيذ الخواطر(١) سببا فى مدح هذه الرياضة العقلية يطغى على ماله من نتائج ضارة، ومايحدثه من الاتصاف بصفات مذمومة (مثل الكبر والعجب والرياء والمباهاة والحسد الخ) .

« فان الشيء إذا كانت له منفعة واحدة وآفات كثيرة فلايجوز التعرض لآفاته ، لتلك المنفعة الواحدة » فالخمر مثلا لاشك فى ماهامن نفع « فى تعديل المزاج وتقوية الطبع وتقوية الدماغ ، والميسر فى تشحيذ الخاطر » ، ومع ذلك فهما محرمان . « بل الرياضة باللعب بالشطرنج ، يشحذ الخاطر ، فلا يجوز الاشتغال به والتعرض لآفاته ، وكذلك النظر فى علم أقليدس والمجسطي ودقائق الحساب والهندسة والرياضة بها يشحذ الخاطر وتقوى النفس و [مع ذلك] نحن نمنع منها لآفة واحدة وهى أنها من مقدمات علم الأوائل ، ولهم مذاهب فاسدة وراءها . وإن لم يكن فى نفس علم الهندسة والحساب مذهب فاسد متعلق بالدين ، ولكن نخاف منه الانجرار إليه » .

وإلى هذه النتيجة عينها انتهى فى الواقع بعض المتدينين . فيروى مثلا عن رجل اسمه محمد بن يونس البهرانى الأربلى (المتوفى سنة ٥٨٥) ، الذى اشتهر خصوصاً كلغوى ، أنه اشتغل ببعض علوم الأوائل ، وحلّ شكوك اقليدس ، وأقبل على دراسة المجسطى لبطليموس إقبالا صادف فيه بعض النجاح(٢) ، ولكنه فى النهاية انتهى إلى أن ثمار هذه العلوم مُرّجناها ، وأنها تفضى إلى غايات مذمومة كلها(٣) .

(١) فى « الاحياء » جـ ١ ص ٩٥ س ١٧ ، يتحدث الغزالى عن « تشحيذ الخواطر » عن طريق علم الكلام ، وراجع أيضا عنوان كتاب « شحذ الفطنة » ، ياقوت ، الكتاب المذكور ، جـ ٢ ص ٧٤ ، السطر السابق على الأخير . كذلك نرى محي الدين بن العربى يأخذ على الفقهاء فى عصره أنهم يشتغلون بالجدال « ينوون فى ذلك تلقيح خواطرهم » ، « الفتوحات المكية » (القاهرة سنة ١٣٢٩) جـ ٤ ص ٤٥٩ س ١٢ .

(٢) ويقال عن مثل هذا العالم إنه « مجسطى أوقليدسى » ، ياقوت ، الكتاب المذكور ، جـ ٢ ص ١٦٠ س ٧ ؛ راجع وصف الفهرست لأحدهم بأنه « اقليدسى » ، ص ٢٨٥ س ١٢ .

(٣) السيوطى ، « بغية الوعاة » ص ١٢٤ : « ثم رأى أن ثمرة هذا العلم مرجناها ، وعاقبته مذموم أولاها وأخراها » .

— ٣ —

وبينما استطاع الفلاسفة الأفلاطونيون المحدثون أن يوجدوا مجالا للاعتراف بعلم التنجيم فى داخل الاسلام بقولهم إن « القدر » هو موجبات أحكام النجوم ، و « القضاء » هو علم الله السابق بما يوجبه أحكام النجوم[1] نرى أن علم الكلام قد اتخذ بإزاء علم التنجيم موقف الانكار[2] له . وذلك لأنه رأى فى التسليم بأن للنجوم تأثيراً عليّاً فى أحداث الكون إنكاراً للمبدأ الرئيسى القائل بأن الله هو العلة الوحيدة والمباشرة لكل الاحداث[3] ، وفى هذا كان المعتزلة والأشاعرة متفقين كل الاتفاق . فنرى أحد المعتزلة المتقدمين ونعنى به أبا الحسن البرذعى ، يفسر قولا منسوباً إلى النبي هو : « إذا ذكرت النجوم فأمسكوا » ، بأنه أمرٌ بعدم إضافة أحداث الكون إلى فعل النجوم

(١) إخوان الصفا ، جـ ٤ ص ١٤٦ ، راجع « استنباط القضاء من النجوم » الوارد فى بروكلمن جـ ١ ص ٢١٩ س ٢٣ . وما يدل عليه مولد الشخص هو وقضاء الله شيء واحد : « وقد دل مولده على ذلك ، وإنك لا تدفع عنه قضاء الله » ، ياقوت ، طبع مرجليوث جـ ٥ ص ٣٦٠ س ٤ .

(٢) إخوان الصفا جـ ١ ، ص ٧٤ ، س ٩ من أسفل حيث يقرأ : « أهل الجدل يتركون ألخ ... »

(٣) أبو حيان التوحيدى ، « المقابسات » (طبعة بمباى) ص ٥ س ٤ : « ولا يكون المذهب ما زعم أرباب الكلام والذين يأبون تأثير هذه الأجرام العالية فى هذه الأجسام السافلة ، ويتقون الوسائط والوصائل ، ويدفعون الفواعل والقوابل » . [يختلف نص طبعة السندوبى (القاهرة سنة ١٩٢٩ ص ١٢٤ س ١ — ٣) عن هذا النص اختلافاً كبيراً والأرجح عندنا أنه أصح من نص طبعة بمباى ، وهاك هو : « [هذا إذا كانت الأحكام صحيحة ومدركة محققة ، أو مصابة ملحقة ، ومعروفة محصنة] ، ولم يكن المذهب ما زعم [الضمير هنا يعود على قوله فى بدء الفقرة : « فمتى أفضى هذا الفاضل النحرير والحاذق البصير ، إلى هذا الحد والغاية ، كان علمه عارياً من الثمرة ، خالياً من الفائدة ...] . وأرباب الكلام والذين يأبون تأثير هذه الأجرام العالية فى هذه الأجسام السافلة ، وينفون الوسائط والوصائل ... »] . راجع كتابى « محاضرات فى الاسلام » ص ١٣٠ ، س ١٥ من أسفل ، فيما يتعلق باحدى الصيغ التى تقال من أجل أن تؤثر النجوم تأثيراً علياً .

وتصرفها كما يفعل «جهال الفلاسفة»[١]. وكذلك كتب متكلم معتزلى شيعى هو حسن ابن موسى النوبختى (فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع) كتاباً فى «الرد على المنجمين»، ثم أنه رد على الجبائى لأن الجبائى لم يكن فى رده على المنجمين قوياً حازماً، وإنما اكتفى باتخاذ وجهة نظر الشكاك[٢]. أما الأشاعرة فرأى مؤسس المذهب هو الأساس المعتمد، وهو الذى ألف كتاباً فى الرد على القائلين بـ «إضافة الأحداث إلى النجوم وتعليق أحكام السعادة بها»[٣]. وهذا الرأى قد ظل رأى الأشاعرة السنيين[٤]. كذلك الشافعى يروى عنه وهو الواسع العلم جدا، أنه اشتغل بعلم النجوم[٥] فى شبابه، ولكنه لما تقدمت به السن أنكر على نفسه هذا الاشتغال بهذا العلم[٦]. ثم إنه عُدّ السبب فى استهتار أبى معشر البلخى (المتوفى سنة ٢٧٢ هـ = سنة ٨٨٥ م) بالدين، بعد أن كان قبل اشتغاله بهذا العلم من الأتقياء الصالحين. ذلك أن أبا معشر

(١) «المعتزلة»، طبع ت. و. أرنولد (ليپتسك سنة ١٩٠٢) ص ٥٣، س ٨.

(٢) النجاشى، «كتاب الرجال» (طبعة بومباى سنة ١٣١٧): كتاب الرد على المنجمين؛ فان أبا على تجاهل فى رده على المنجمين ... راجع أيضاً المعتزلة، الطبعة المذكورة، ص ٥٥ س ١٠، ص ٥٨، س ٦ من أسفل.

(٣) ابن عساكر، أورده ميرن Mehren فى كتابه عن الأشعرى.. Exposé ص ١٠١ س ٨ من أسفل. كذلك رد على كتاب الآثار العلوية لأرسطو: «نقض كتاب الآثار العلوية على أرسطاطاليس»، الكتاب المذكور (تأليف ميرن) ص ٨٠٢ س ١٣.

(٤) يهمنا أن نشير هنا إلى كتاب أبى بكر الخطيب البغدادى (المتوفى سنة ٤٦٣ [ورد خطأ مطبعى فى بروكلمن ج ١ ص ٣٢٩ فذكر هذا التاريخ هكذا: سنة ٤٠٣]) المسمى بكتاب «القول فى النجوم»، راجع السبكى، «طبقات الشافعية» ج ٢ ص ٢٣٥ س ١٠ وص ٣١٩ س ١٧.

(٥) يروون عنه أنه فى افتخاره بعلمه بحضرة الرشيد ذكر أنه عالم بالنجوم يعرف منها «البرى من البحرى، والسهلى، والجبلى، والفيلق والمصبح»؛ والظاهر أن معرفته بهذا العلم كانت بالأحرى متعلقة بعلم الفلك من هذا الباب (أورده ياقوت، طبع مرجليوث ج ٦ ص ٣٧٢ س ١٠).

(٦) السبكى، الكتاب المذكور، ج ١ ص ٢٤٣؛ ص ٢٥٨ س ٩؛ أبيات فى ذم علم النجوم، ياقوت، الكتاب المذكور ص ١٩٧.

كان فى أول أمره من أصحاب الحديث — حتى قيل عنه أنه كان يغرى العامة بالكندى الفيلسوف[١] — ، ثم عزم على الرحلة من بلده خراسان إلى مكة للحج. وبينما هو فى طريقه إلى مكة زار مكتبة الوزير على بن يحى بن المنجم « وتعلم فيها علم النجوم ، وأعرق فيه حتى ألحد . وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والاسلام أيضاً[٢] » .

ونرى أن الليث بن المظفر ، وهو حفيد نصر بن سيار المشهور أحد الولاة فى الأيام الأخيرة للدولة الأموية فى الشرق ، ومحرر كتاب العين للخليل ابن أحمد ، يقول عن نفسه إنه اشتغل بتحصيل جميع فروع العلم ، فيما عدا علم النجوم ؛ لا لأنه كان عاجزاً عن تحصيله ، ولكن لأنه رأى أن العلماء يكرهونه[٣] .

ولم يكن هذا قاصراً على التنجيم فحسب ، على الرغم مما كان هناك من تفرقة مستعملة بين الاصطلاحين : علم النجوم وعلم الهيئة[٤] . فان المؤمنين من أهل السنة لم يكونوا راضين كل الرضا عن الفلك العلمى أيضاً . فعلى الرغم مما لمعرفته من فائدة فى إقامة بعض الشعائر الدينية (كتحديد مواعيد الصلاة بالدقة[٥] — علم الميقات — ، وتحديد القبلة — سمت القبلة —) ومن استعماله بهذا المعنى فى كتبهم ، إلا أنه من علوم الأوائل ، أى من العلوم التى لم تنبت فى التربة التى تنبت فيها العلوم الشرعية ، وكفى هذا لكى يكون علماً متهماً . بل إن مفسراً متكلما كبيراً ، قريباً كل القرب من الفلسفة ، كالفخر الرازى لم يكن يثق بعلم

(١) القفطى ص ١٥٣ س ١٥ .

(٢) ياقوت ، الكتاب المذكور ج ٥ ص ٤٦٧ س ١٠ .

(٣) ياقوت ، الكتاب المذكور ، ج ٦ ص ٢٢٥ : « وما عجزت إلا أنى رأيت العلماء يكرهونه » .

(٤) مثلا « الفهرست » ص ٢٧٩ س ١٥ : « يشار اليه فى علم النجوم وسيما فى علم الهيئة » .

(٥) كان يراعى فى من يعينون بوظيفة «الموقت» أن يكون عالماً بالفلك ، راجع مثلا ما فى بروكلمن ج ٢ ص ١٢٦ س ٦ من أسفل .

الفلك كثيراً ، على الرغم من اعترافه بعلم التنجيم : فيقول إنه لا سبيل إلى معرفة عالم السموات إلا عن طريق النقل والإخبار[١] .

والحق أنهم وجدوا فى مواضع من علم الفلك مقدّمات وأقوالا لا يمكن التوفيق بينها وبين مافى الاسلام توفيقاً حقيقياً . فالسلطان السنى خوارزمشاه يرى ما أخبره به أحد الرحالة عن بلاد « الشمسُ طالعة فيها فى منتصف الليل » الحاداً وقرمطة ؛ فان صحة هذا الخبر تقتضى الشك فى صحة قواعد مواقيت الصلوات المختلفة[٢] . إلا أن البيرونى العظيم ، الذى كان يعيش آنئذ فى بلاط السلطان ، طمأنه على صدق ما أخبر به هذا الرحالة[٣] . ثم كيف يتفق مع حقائق علم الفلك أن تشرق الشمس من المغرب ، وقد ورد هذا فى الحديث باعتباره علامة من علامات الساعة ؟ يرد محمد بن يوسف الكرمانى (المتوفى سنة ٧٨٦) على من أنكروا إمكان هذه الظاهرة ، معتمدين على القول بأن قوانين حركات الأفلاك ثابتة لا تتغير ، بقوله فى كتابه « الكواكب الدرارى فى شرح البخارى » ، إن مبادىء أهل الهيئة مردودة ، « وقواعدهم منقوضة ، ومقدماتهم ممنوعة » ، وهم أنفسهم اعترفوا بأن تغير المشرق والمغرب ليس بمستحيل[٤] .

والآن فماذا كان موقف أهل السنة عامة بإزاء دراسة الطبيعيات ؟

إن الغزالى نفسه ، وهو الذى لم يشأ التسليم ، وهو يحارب الفلسفة ، بأن هناك تعارضاً بين الحقائق الفلكية التى ثبتت رياضياً ، وبين الأحاديث ، وكان أميل إلى اعتبار الأولى صحيحة لا سبيل إلى دحضها ، مفضلا التضحية

(١) « مفاتيح الغيب » (بولاق سنة ١٢٨٩) ج ٦ ص ١٤٩ : « والحق أنه لا سبيل إلى معرفة السموات إلا بالخبر » .

(٢) هذه المسألة هى فى الواقع موضوع المسائل الدينية الفقهية التى ذكرها حسن العباسى فى كتابه الوارد ذكره فى كتابى « مباحثات فى الفيلولوجيا العربية » ج ١ ص ٢١٥ *Abhandlungen zur arabischen Philologie.*

(٣) ياقوت ، الكتاب المذكور ج ٦ ، ص ٣١٠ .

(٤) أورده القسطلانى ج ٩ ص ٣٢٤ فى أسفل .

بصحة الأحاديث المتناقضة ، أو لائذاً بالتأويل المؤدى إلى التوفيق بينهما[١] ، نقول إن الغزالى كان أقل ثقة بالطبيعيات منه بالفلك . فانه يقول « وأما الطبيعيات فالحق فيها مشوب بالباطل ، والصواب فيها مشتبه بالخطأ ، فلا يمكن الحكم عليها بالغالب والمغلوب »[٢]. وهذا الرأى المطبوع بطابع الشك المشوب بالخوف أمكن أن يفسح المجال لكى يجيب من بعدُ ، عن السؤال الذى وضعناه ، أحدُ كبار رجال الشافعية ، ونعنى به شهاب الدين بن حجر الهيتمى ، وكانت إجابته هاتيك ملحقة بتحريمه علم التنجيم . قال ابن حجر : « وأما البحث فى الطبيعيات فإن أريد به معرفة الأشياء على ماهى عليه على طريق أهل الشرع ، فلا منع منه ، وليس مشابها للتنجيم المحرّم ؛ وإن أريد به معرفة ماهى عليه على طريق الفلاسفة ، فهوحرام ، لأنه يؤدى إلى مفاسد ، كاعتقاد قدم العالم ونحوه مما لا يخفى من قبائحهم . وحرمته حينئذ مشابهة لحرمة التنجيم المحرم : حيث أفضى كل منهما إلى المفسدة ، وإن اختلفت نوعا وقبحا »[٣].

— ٤ —

وكان لأهل السنة بازاء المنطق اليونانى موقف خطير ، أخطر بكثير من موقفهم بازاء بقية علوم الأوائل . فبينما كان عدم الثقة بازاء العلوم اليونانية الأخرى يبدو فى العناية بالتحذير منها فحسب ، ظهر الكفاح ضد المنطق فى صورة معارضة خطيرة كل الخطورة . فالاعتراف بطرق البرهان الارسطالية اعتبر خطراً على صحة العقائد الايمانية ، لأن المنطق يهددها تهديداً جدياً كبيراً . وعن هذا الرأى عبّر الشعورُ العام لدى غير المثقفين فى هذه العبارة التى جرت مجرى المثل : مَنْ تمَنْطَقَ تَزَنْدَقَ[٤] .

---

(١) « تهافت الفلاسفة » ص ٤ س ١٧ وما بعده .

(٢) « مقاصد الفلاسفة » (طبع صبرى الكردى ، القاهرة سنة ١٣٣١) ص ٣ .

(٣) « فتاوى حديثية » (القاهرة ، الميمنية سنة ١٣٠٧) ص ٣٥ .

(٤) محمد بن شنب ، « الأمثال العربية فى الجزائر والمغرب » ج ٣ (باريس ١٩٠٦) ص ٢٨٣ *Proverbes arabes de l'Algerie et du Maghreb* .

والظاهر أن الفارابى — وفضله الرئيسى راجع خصوصا إلى شروحه لكتب أرسطو المنطقية وتبسيطها — قد قصد إلى معارضة هذا الرأى المتسلط على الأذهان ، حين كتب دفاعا عن المنطق (لم يصل الينا) ، جمع فيه طائفة من أقاويل النبي يمكن أن تستخدم للحكم ، من وجهة نظر الدين ، حكما فى صالح المنطق (١).

وكان للمتكلمين نصيب وافر فى العمل على ذم المنطق من وجهة نظر الدين . وهم قد خرجوا على قواعد البرهان القياسى فى محاولاتهم ، واعتقدوا أنهم يستطيعون تأييد أقوالهم بمقدمات لا مبرر لها غير اشتهارها أو تواضع المتعصبين لنصرة المذاهب عليها من غير برهان ، ومن غير كونها أولية واجبة التسليم » .(٢) وكان هذا سببا فى ازدراء الارسططاليين المسلمين لهم (٣). ومن دوائر المتكلمين ، سواء المعتزلة منهم والأشاعرة ، خرجت كتب عديدة ضد الفلسفة عموما ، والمنطق على وجه التخصيص (٤). واخوان الصفاء ولعلهم أن يكونوا فى هذا مغالين بعض الغلو ، يتهمون المتكلمين (ويقصدون

---

(١) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٣٩ س ١٥ : « كلام جمعه من أقاويل النبي صلعم يشير فيه إلى صناعة المنطق » .

(٢) راجع نشرتنا لكتاب « معانى النفس » ص ١٣ [هذا كتاب فى الأخلاق ، نسب خطأ إلى باخيا بن باقودا الفيلسوف اليهودى ؛ وهو باللغة العربية بحروف عبرية . نشره جولدتسيهر سنة ١٩٠٧ فى « أعمال الجمعية الملكية للعلوم بمدينة جيتنجن » ، قسم الدراسات الفلسفية والتاريخية ، سلسلة جديدة ، المجلد التاسع ، عدد رقم ١ ، برلين ، ڤيدمن ، ٦٣ + ٦٩] وراجع ما يقوله الغزالى ، « معيار العلم » ص ١٣١ س ١١ : « ترى تناقض أكثر أقيسة المتكلمين . فانهم ألفوها من مقدمات مسلمه لأجل الشهرة ، أو لتواضع المتعصبين لنصرة المذاهب عليها ، من غير برهان ، ومن غير كونها أولية واجبة التسليم » . وراجع « ميزان العمل » (القاهرة ، مطبعة كردستان سنة ١٣٢٨) ص ١٦٠ س ٨ .

(٣) راجع كتابى « محاضرات فى الاسلام » ص ١٢٩ .

(٤) يكفى أن نذكر مثلا كتاب « الرد على أهل المنطق » للنوبختى (النجاشى ، الكتاب المذكور ، ص ٤٧) .

المعتزلة) بانهم يقولون بانه لافائدة فى علم الطب[١]. وأن علم الهندسة[٢] عاجز عن معرفة حقائق الأشياء[٣]، وأن علم المنطق والطبيعيات كفر وزندقة، وأن أهلها ملحدون »[٤] . ونستطيع أن نوضح هذه التهمة بمثال واحد، وهو ما رواه الفيلسوف أبو حيان التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين[٥] » عن موقف الصاحب اسماعيل بن عباد (المتوفى سنة ٣٨٥) العالم، وزير آل بويه، وكان من أنصار مذهب المعتزلة المتعصبين تعصبا دفعه إلى أن يجعل هذا المذهب الدينى المذهب السائد فى أيام وزارته[٦] . وهذا الكتاب طعن فى الصاحب وفى زميله أبى الفضل بن العميد، وكان شؤماً على من يقتنيه[٧]. قال أبو حيان بعد أن وصف كثرة معارف الصاحب السطحية وسرعة بديهته فى أسلوب تهكمى : « والغالب عليه (أى على الصاحب) كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ... وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها ، كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد ، وليس له من الجزء الإلاهى خبر ، ولا له فيه عين ولا أثر »[٨].

وكتب الشيعة تنسب العبارة الآتية إلى الأمام عبد الله (أى جعفر

---

(١) ممن صرحوا بعداوتهم لعلم الطب ، الجاحظ ؛ ولمحمد بن زكريا الرازى الطبيب المشهور كتاب فى « الرد على الجاحظ فى نقض الطب » (الفهرست ص ٣٠٠ س٢٤) ؛ راجع « مجلة ڤينا لمعرفة الشرق » WZKM المجلد رقم ١٣ ص ٥٣ ، تعليق رقم ٣ .

(٢) ربما كان هذا راجعاً إلى الميل إلى الشك عند المتكلمين .

(٣) راجع قبل ص ١٤٠ تعليق رقم ٣ .

(٤) « رسائل اخوان الصفا » (طبعة بمباى) ج ٤ ص ٩٥ فى أسفل : « إن علم الطب لا منفعة فيه ؛ وإن علم الهندسة لا حقيقة لها (هكذا) ؛ وإن علم المنطق والطبيعيات كفر وزندقة ، وإن أهلها ملحدون » .

(٥) راجع « مجلة الجمعية الأسيوية الملكية » JRAS ، سنة ١٩٠٩ ص ٧٧٥ .

(٦) راجع مجلة « الاسلام » المجلد رقم ٣ ص ٢١٤ .

(٧) أورده السيوطى فى « بغية الوعاة » ص ٣٤٨ فى السطر الأخير : « وهذا الكتاب من الكتب المحدودة ، ما ملكه أحد إلا وتعكست أحواله » . راجع أميدروز ، « مجلة الاسلام » ، المجلد المذكور ، ص ٣٤٥ .

(٨) ياقوت طبع مرجليوث ، ج ٢ ص ٢٧٦ .

الصادق) : « إن الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلموا فى الله ؛ فاذا سمعتم ذلك قولوا لا إله إلا الواحد الذى ليس كمثله شىء[١]» . وهنا يجب ألا يفوتنا أن نلاحظ أن هذا التحذير من المنطق صادر عن فرقة تتجه فى العقائد اتجاه مذهب المعتزلة .

— ٥ —

ولكن على الرغم من كل ما رأيناه من أن المنطقى — وهذا لقب المتخصصين فى المنطق[٢]— لم يكن ينظر اليه أهل السنة بعين الرضى ، فانا نستطيع مع ذلك أن نشاهد أن بعضاً من أئمة رجال الدين قد تحدثوا بخير عن الاشتغال به اشتغالا يقوم على الدراسات التى وجدت فى العصر العباسى الأول[٣] ، وانهم قد انتفعوا به فى خدمة الكلام والدراسات الدينية .

---

(١) الكلينى ، « أصول الكافى » (عباى سنة ١٣٠٢) ص ٥٢ س ١٠ . وهذه العبارة تذكرنا بالحديث الذى وضعه أهل السنة وقد أوردناه فى « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » ، المجلد رقم ٥٧ ص ٣٩٣ س ١٤ .

(٢) وقد يستعمل أحيانا كلقب دائم لهؤلاء العلماء ، فمثلا يحى بن عدى المنطقى ، أبو سليمان المنطقى ؛ والأخير كان مركزا لدائرة من الفلاسفة ، جمع أبو حيان التوحيدى فى « المقابسات » مجالسها (راجع دى بور « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » ص ١١٤ وما يليها [= ١٥٥ وما يليها من الترجمة العربية]) ؛ ونحن نجد إلى جانب جمع المذكر السالم للفظ « منطقى » جمع التكسير : « المناطقة » (ومن المؤكد أن هذا كان بتأثير لفظ « الفلاسفة » تأثيراً لفظياً شكلياً) عند الشعرانى فى « لطائف المنن » ج ١ ص ١٢٤ س ٥ من أسفل : « كما هو مقرر فى كتب المتكلمين والمناطقة وأهل الهندسة » .

(٣) إلا أن الكتاب الذى أمر الخليفة المعتضد أبا اسحاق الزجاج بتفسيره تفسيراً لم تخرج منه إلا نسخة واحدة خاصة بخزانة المعتضد ، ونال الزجاج من أجله مكافأة من الخليفة ، نقول إن هذا الكتاب لم يكن موضوعه علم المنطق ، كما قد يستنتج من عنوانه الذى ورد فى روايات كثيرة هكذا : « جامع المنطق » . فان ما أورده الفهرست ص ٦٠ من وصفه لايمكن أن ينطبق إلا على كتاب فى اللغة ، وهذا يبرر تفضيل فليجل للقراءة : « جامع النطق » ، وهى قراءة أوردها ياقوت أيضاً (طبع مرجليوث ج ١ ص ٥٧ س ٣ من أسفل) . ولو أنه من الصحيح أيضا أن أحد تلاميذ الزجاج ، ونعنى به محمد بن اسحق أبا النصر الكندى ، قد اشتهر بأنه « كان عالما بالهندسة ، قيما بعلوم الأوائل » ، التنوخى فى ياقوت ، الكتاب المذكور ، ج ٦ ص ٤٠٧ س ٨ .

وهنا نستطيع أن نلقى نظرة على الاسلام فى الغرب أيضاً . فنرى بعد موت الخليفة الحكم (سنة ٣٦٦ ﻫ) الذى عنى بعلوم الأوائل وعمل على انتشارها والاقبال عليها ، أن المنصور بن أبى عامر قد أمر باحراق جميع الكتب المؤلفة فى العلوم القديمة ، وبخاصة المنطق وعلم النجوم ، وكان المنصور يعتمد فى تأييد حكمه على رجال الدين[١]. إلا أنا نشاهد بعد هذه المظاهرة الصادرة عن التعصب أن واحداً من أشد المتحمسين لنصرة السنة بمعناها الضيق ، هو ابن حزم ، كان من المؤيدين لعلم المنطق تأييداً مصدره الاعجاب وليس ابن حزم بوجه عام عدواً للفلسفة ؛ فهو يصرح بأن الفلسفة الحقيقية غايتها إصلاح النفس ، وتلك الغاية بعينها هى غاية الشريعة ، فلا تعارض إذاً بين الاثنتين ، وليس ينكر الشريعة إلا الذين يزعمون أنهم ينتمون إلى الفلسفة ، وواقع الأمر أنهم بمعانى الفلسفة حقاً جاهلون[٢] . ولدراسة المنطق فى نظر ابن حزم قيمة خاصة فنراه يقول[٣] إن : « الكتب التى جمعها ارسطاطاليس فى حدود الكلام (؟ — يقصد قواعد المنطق) ... كلها كتب سالمة مفيدة ، دالة على توحيد الله عز وجل وقدرته ، عظيمة المنفعة فى انتقاد جميع العلوم . وعِظَمُ منفعة الكتب التى ذكرنا فى الحدود (أى القواعد المنطقية) فى مسائل الأحكام الشرعية (أى يظهر عظم منفعتها فى مسائل الأحكام الشرعية) : بها يتعرف كيف يتوصل إلى الاستنباط (الصحيح) ، وكيف تؤخذ الألفاظ على مقتضاها ؛ وكيف يعرف الخاص من العام ، والمجمل من المفسر ؛ وبناء الألفاظ بعضها على بعض ، وكيف تقديم المقدمات وانتاج النتائج ؛ وما يصح من ذلك صحة ضرورية أبداً ، وما يصح مرة وما يبطل أخرى ، وما لا يصح البتة ؛ وضرب الحدود التى من شذ عنها كان

(١) تجد وصفا مفصلا لاحراق هذه الكتب ، فى « طبقات الأمم » لصاعد ، طبع شيخو (بيروت سنة ١٩١٢) ص ٦٦ وما يليها .

(٢) كتاب « الملل » طبعة القاهرة ج ١ ص ٩٤ .

(٣) « الملل » ج ٢ ص ٩٥ .

خارجاً عن أصله ، ودليل الاستقراء ، وغير ذلك مما لا غناء بالفقيه المجتهد لنفسه ولأهل ملته عنه » . وهو يشير أيضاً إلى الكتب التى ألفها فى حدود المنطق ، وفى رده على الاعتراضات التى وجهها القائلون بأن العالم قديم إلى من يقولون بأنه محدث ، يقول إن هذه برهنة وهمية سفسطائية (شغبية) طالما حذر من مثلها من قبل ، فهى حجج سفسطائية لا تستقيم وقواعد المنطق[١] . والظاهر أن كتب ابن حزم هذه قد ضاعت فيما ضاع من كتبه العديدة[٢] . ومع ذلك فانا نستطيع أن نكون فكرة عن منهجها وقيمتها عما ذكره أحد معاصريه[٣] ، ونعنى به القاضى أبا القاسم صاعد بن احمد قاضى طليطلة (المتوفى سنة ٤٦٢ هـ) . قال صاعد : « فعنى (أى ابن حزم) بعلم المنطق ، وألف فيه كتابا سماه « التقريب لحدود المنطق » ، بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية ، وخالف ارسطاطاليس ، واضع هذا العلم ، فى بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضه ، ولا ارتاض فى كتبه . فكتابه من أجل هذا كثير الغلط ، بين السقط[٤] » .

ومن هذا النقد نستطيع أن نستنتج أن اشتغال ابن حزم بالمنطق كان من أجل خدمة نظرياته الدينية ، كما هو واضح أيضا مما أوردناه له آنفاً من أقوال فى علم المنطق . إلا أن هذا النقد مع ذلك دليل على أن التقاليد العلمية فى الأندلس الاسلامى ، وهى التقاليد التى أوقف سيرها وتقدمها حادث المنصور بن أبى عامر لمدة من الزمان قصيرة ، لم يكن من الممكن أن تنتزع من

---

(١) كتاب « الملل والنحل » جـ ١ ص ٢٠ فى أعلى : « هذه شغبية قد طال ما حذرنا من مثلها فى كتبنا التى جمعناها فى حدود المنطق » .

(٢) راجع « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » ، المجلد رقم ٦٩ ص ١٩٣ .

(٣) وقد عرف تاريخ ميلاد ابن حزم من ابن حزم نفسه مباشرة ؛ وعرف أخباراً عن مؤلفات ابن حزم من ابنه ، أبى رافع .

(٤) كتاب « طبقات الأمم » ص ٧٦ س ٥ وما يليه ؛ راجع ياقوت ، طبع مرجليوث جـ ٥ ص ٢٧ ، فانه أورد هذا الموضع .

وعيه وشعوره . إلا أن العناية بهذه الروح الأصيلة فى الأندلس ، ونعنى بها الروح العلمية ، لم تكن ظاهرة فى جميع رجال الدين هناك بدون استثناء . فانه حتى فى عصر الازدهار العظيم للدراسات الفلسفية ، وبدئها الحياة من جديد ، وهو الازدهار الذى ظهر حتى فى أيام دولة الموحدين أنفسهم ، نسمع — وكتب التراجم تقدم لنا على هذا كثيراً من الشواهد — فقهاء المالكية المتزمتين يحملون على الدراسات الفلسفية فى عنف ظاهر وغضب بيِّن(١). ومن أوضح الأمثلة على هذا الاتجاه مثل نأخذه من القرن الثانى عشر ، وهو تلك الأبيات التى هجا بها ابن جبير ، الرحالة الكاتب البارع ، الفلسفة(٢). ولعله فى حكمه على ما «سَنَّ ابن سينا وأبو نصر» قد تأثر بما سمعه فى البيئات السنية فى الشرق التى اتصل بها أثناء رحلته(٣) .

وكان للغزالى المكانة الكبرى من بين رجال أهل السنة الذين لم يكونوا ليكرهون دراسة المنطق فى ذاتها . إلا أن النحو الذى عليه عالج هذا النوع من الدراسة الذى أحبه حباً شديداً يكشف عما كان يشعر به من حرج وضيق وهو يعالجه بإزاء من يمثلون مذهب أهل السنة والجماعة . فان أبا الحجاج يوسف بن محمد بن طملوس (راجع قبل ص ١٢٣) الأندلسى الأرسطالى المدافع عن الدراسات المنطقية وله كتب فى المنطق ، ونحن نراه فى دفاعه عن المنطق وإيمانه بمكانة هذا العلم فى الاسلام بعكس ما يقوله خصوم هذا العلم يستشهد بالغزالى

(١) راجع ميجيل اسين بلاثيوس فى كتابه « ابن مسرة ومدرسته » (طبعة مدريد سنة ١٩١٤) ص١٩ تعليق رقم ٥ Miguel Asin Palacios, *Abenmassara y su escuela* [فى هذا التعليق يقول بلاثيوس إنه « بوجه عام ، كان المنطق يعتبر ، ليس فقط فى القرون الأولى ، بل وفى العصور المتأخرة أيضاً ، من بين الدراسات التى يحرم الاشتغال بها »] .

(٢) المقرى ج ١ ص ٧١٦ [نص هذه الأبيات هو :

قد ظهرت فى عصرنا فرقة ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدى فى الدين إلا بما سن ابن سينا وأبو نصر]

راجع مقدمة « رحلات ابن جبير » ، التى عملها ريت ودى خويه ص ١٤/١٥ *The travels of I. Gubair*, ed. Wright-de Goeje.

(٣) ذكر ابن العربى (« الفتوحات المكية » ج ١ ص ١٥٣ وما تليها ، القاهرة ، المطبعة الميمنية سنة ١٣٢٦) أن ابن جبير شهد دفن ابن رشد ، وكان فى حالة تأثر شديد .

خصوصاً ، نقول إن ابن طملوس قال فى عرضه الأحوال السائدة فى عصره بعد أن أورد أسماء كتب الغزالى فى المنطق، إن الغزالى، باعترافه ، لم يشأ فى أسماء كتبه المنطقية أن يسميها باسم « المنطق » وإنما سماها بأسماء أخرى تخفى هذا الاسم الحقيقى الذى هو موضوع الذم والاستهجان[١] . « فهذه الكتب التى ألفها أبو حامد هى فى[٢] صناعة المنطق، لكن أبا حامد غير أسماء الكتب وأسماء المعانى المستعملة فيها ونكبَ عن ألفاظ أهل الصناعة إلى ألفاظ مألوفة عند الفقهاء ، معتادة الاستعمال عند علماء زمانه . وما فعل هذا كله إلا حذراً وتوقياً من أن يجرى عليه ماجرى على غيره من العلماء ، الذين أتو بالغريب وغير المألوف ، من الامتحان والامتهان فصانه الله عن ذلك بلطفه » . ولكن هذا لا ينطبق مع ذلك على القسم الخاص بالمنطق من كتاب « المقاصد » ، فانه لا يغفل ذكر هذا الاسم وإنما يستعمله كما يشاء ، حين يذكر فائدة هذا العلم فى أثناء البحث فيه فيقول : « فإذاً فائدة المنطق اقتناص العلم ، وفائدة العلم حيازة السعادة الأبدية فاذا صح رجوع السعادة إلى كمال النفس بالتذكية والتحلية ، صـــار المنطق لا محالة عظيم الفائدة »[٣] ثم أنه اعتقد أن إظهار احترام رأى معاصريه يكون باستعمال ما استعمل من مصطلحات وألفاظ أراد بها أن يجعل مقبولا ما يورده من مناهج قد تثير الشك وعدم الثقة فى نفوس الغرباء عن المنطق ، أكثر من أن يكون ذلك بتسمية كتبه بأسماء أخرى غير « المنطق » . وهو قد رأى أن الألفاظ المستعمله فى المنطق عادة إنما وضعتها شعوب سبقت رسالة عيسى

(١) « رأيت من تلويحاته وإشاراته التى تكاد أن تكون تصريحاً أن له فيها (فى صناعة المنطق تآليف ورى فى تسميتها من أن يسميها باسم المنطق . وهذه الكتب منها «معيار العلم» ، وكتاب « محك النظر » ، وهو دون « المعيار » ، ومقدمة « المستصفى » فى الفقه ، ومنها مقدمة « المقاصد » . وراجع ما يقوله الغزالى فى « تهافت الفلاسفة » (القاهرة ، المطبعة الميلامية سنة ١٣٠٢) ص ٦ س ١٠ : « الكتاب الذى سميناه معيار العلم ، الذى هو الملقب بالمنطق عندهم » .

(٢) [فى نص مؤلف البحث هن من]

(٣) « مقاصد الفلاسفة » ص ٧ .

ومحمد ، وأخذتها عن صحف ابراهيم وموسى(١).

بدأ الغزالى بأن قال إن منهج البحث فى الأمور الفقهية لايختلف عن منهج البحث فى الأمور العقلية(٢) ، وعلى أساس هذا القول حاول فى كتبه الخاصة بالمنطق أن يبين فائدة منهج هذا العلم للمباحث الدينية ، كما حاول أن ينظم تطبيق ذلك المنهج على هذه الأخيرة . فنراه فى كتاب « القسطاس » يحاول جهده أن يستخرج أشكال القياس المختلفة ، التى هى وحدها « موازين » الحقيقة ، من القرآن نفسه . وفى كتاب «المعيار» يقدم إلينا بحثاً منظماً كاملا فى المنطق ، واضعاً نصب عينيه دائماً استخدامه فى الفقه وتطبيقه على مسائله فالأمثلة التى يضربها لأشكال القياس وضروبه مأخوذة كلها من الفقه (٣) ، وفى مواضع كثيرة من المنطق نراه يوضح المسائل المنطقية بأمثلة من الفقه قدر المستطاع(٤) ، ولكن ليس معنى هذا مطلقاً أنه يرى أن طرق الاستدلال فى الفقه متفقة اتفاقاً دقيقاً مع قواعد الاستدلال البرهانى ، بل إنه ليشير بالأحرى إلى ماهنالك من الفروق السائدة بين كلا النهجين فى كلتا الناحيتين(٥) ويميز تمييزاً واضحاً بين الاستدلالات ذات الطابع الظنى — وهى كافية فى الفقه كل الكفاية — وبين الاستدلالات ذات الطابع اليقينى(٦) ، ويكشف باستمرار عن خرق مناهج الفقه للقواعد المنطقية . فنجده فى كتاب « المقاصد » الذى قصد به إلى تقديم خلاصة للفلسفة الأرسططالية ، ينتهز الفرصة ، حين عرضه لنظرية القياس ، لكى يلقى نظرة على مايسميه الفقهاء والمتكلمون

---

(١) « القسطاس » (طبعة القاهرة ، مطبعة الترقى سنة ١٩٠٠) ص ٥٩ .

(٢) « معيار العلم » ص ٢٣ س ٢ : « إن النظر فى الفقهيات لايباين النظر فى العقليات » .

(٣) « معيار العلم » ص ٨٦ وما يليها .

(٤) مثلا فى الكتاب السابق ص ٤٦ س ٣ من أسفل ؛ ص ٥٨ س ٣ وما يليه ؛ ص ٧٢ س ٥ من أسفل ، كذلك فى مواضع من الكتاب متفرقة .

(٥) الكتاب السابق ، ص ٨٣ س ١٠ ؛ ص ٧٨ فى أسفل ، ص ١٤٨ س ٢ ؛ وغير ذلك .

(٦) ص ٩١ س ٩ من أسفل .

قياساً ، من أجل أن يبين مافيه من عيوب منطقية[١] . وفى كتاب « المعيار » يقوم بهذا بطريقة منظمة ، فيشير إلى أن درجة اليقين فى النتائج تتوقف على درجة اليقين فى المقدمات[٢] ، ويأخذ على أهل الرأى والقياس سطحيتهم ، لأنهم بما لديهم من معرفة غير مهضومة بشىء من العلوم العقلية[٣] يخلطون فى استعمالهم القياس التمثيلى فى الفقه .

إلا أن الغزالى لم يكن يقصد من وراء هذا إلى النيل من نظريات الفقه وأقواله الثابتة ، وإنما هو قد أراد بكتبه المنطقية أن يبين أهمية المنطق بالنسبة إلى تنظيم البحوث الدينية تنظيما يقوم على منهج فى البحث مستقيم ، وأن يوصى باتباعه ، وهذا واضح مما فعله فى كتابه الأخير الضخم « المستصفى » وهو كتاب جمع دروسه فى أصول الفقه ، فقد قدم له بمقدمة هى تلخيص لمسائل المنطق الرئيسية ، مأخوذ عن كتبه المنطقية السابقة .

وإن ما طبع عليه الغزالى من التردد ليجعله يصل فى النهاية إلى نوع من الشك والقلق يثيرهما فى نفسه تأمله فى أغراض المنطق وما عسى أن ينجم عن هذه الأغراض من نتائج خطيرة بالنسبة إلى العقائد الدينية . فهو فى كتابه « محك النظر » ، وهذا ملخص فى المنطق ألفه الغزالى تلبية لدعوة صديق .

---

(١) « مقاصد الفلاسفة » ص ٤٣ .

(٢) « معيار العلم » ص ١١٢ : « إن المقدمات التى ليست يقينية ولا تصلح للبراهين » . وهو يشير بنوع خاص إلى الاستدلال فى الفقهيات عن طريق « نقل الحكم من جزئى على جزئى [فى نص مؤلف البحث : جزء ، « وهو خطأ مطبعى] آخر » ، ص ٦٩ ، س ٤ من أسفل ، ص ٩١ س ١٦ ؛ وإلى القياس المؤلف « من مقدمات وعظية خطابية » ص ١٣٠ ، السطر الأخير ؛ وإلى هذا النوع من القياس المختلف فيه كثيراً ونعنى به القياس « من الشاهد إلى الغائب » . كذلك فى مؤلفه الأخلاق « ميزان العمل » ص ٩٤ س ١٠ ، ص ١٥٩ وما يليها يورد أنواع الاستدلال الثلاثة محدداً إياها بدقة .

(٣) « معيار العلم » ص ١٠١ س ١١ : « ولقد خاض فى الفقه من أصحاب الرأى من شدى [فى نص مؤلف البحث : سدى ، وهو خطأ مطبعى] أطرافاً من العقليات ولم يخمرها » .

ولسنا نستطيع أن نحدد تاريخ تاليفه على وجه اليقين (١) ، يعبر عن سآمته من هذا العلم تعبيراً ينم عن ضجر شديد فيقول : « وحوّلنى (هذا الصديق) إلى فنّ اطّـرحته بحكم السآمة والضجر ، فشُدت إليه معاودة من التفت إلى ماهجر وظلّ الالتفات إلى ما هُجر ثقيلا (٢) » . ويطالب إلى صديقه (فى المقدمة وفى الخاتمة) أن يعاهده على أن يدعو الله من أجله فى أوقات خلوته بعد كل صلاة ، فى مقابل هذا العمل الذى قام به إجابة إلى رغبته ، وأن يطلب الى أصدقائه أيضا أن يدعوا الله له بنفس الدعاء فيقول ويقولوا : « اللهم أره الحق حقاً ، وارزقه اتّـباعه ، وأره الباطل باطلاً ، وارزقه اجتنابه(٣) » .

والآن فلنلخص حكمه الأخير على هذا العلم الذى أشاد به فى مطلع سنه ، إشادة كبيرة باعتباره علماً يؤدى إلى الظفر بالسعادة : يتحدث الغزالى فى اعترافاته (المنقذ من الضلال) عن المنطق من بين العلوم التى تحدث عن صلتها بالدين ، فيقول إنه كالرياضيات سواء بسواء لا خطر منه فى ذاته على الدين . فاية صلة هناك بين مهمات الدين وبين قواعد الحدو أشكال القياس مثلا ، حتى يجحد المنطق وينكر ؟ إلا إن هذا الانكار وذلك الجحود ليحملان أهل المنطق على سوء الاعتقاد فى عقل هذا الذى يجحده وينكره . وعلى العكس من ذلك يرتكب أهل

(١) ولكنه على كل حال قد ألفه وهو فى سن متقدمة ؛ فان الغزالى يشير فى الخاتمة إلى أنه بحث فى المنطق فى معيار العلم ، ولكنه لم يكن قد نشر هذا الكتاب بعد ، لأنه كان لا يزال فى حاجة إلى مراجعة أخيرة . وتبعا لهذا يظهر أن الكتاب الذى نحن بصدده أقدم من التحرير النهائى لكتاب « المعيار » الذى نشره من بعد ، وقد أشار اليه أيضاً فى « التهافت » ص ٥٢ السطر الأخير باعتباره ملحقا لكتاب «التهافت» .

(٢) « محك النظر » (طبع النعسانى والقبانى ، القاهرة ، المطبعة الأدبية ، دون ذكر تاريخ الطبع) .

(٣) كذلك فى الرسالة الصغيرة إلى أحمد بن سلامة الدمى المسماة « برسالة الوعظ والاعتقاد » (= بروكلمن جـ ١ ص ٤٢١ ، برقم ١٢ ، ولكن ليس من الصحيح ما ورد فيه من قراءة اسم ابن سلامة هكذا : الدّميمى) المطبوعة مع كتاب « فيصل التفرقة » ، يرجو الغزالى صديقه نفس الرجاء فيقول : « [وهأنا ... مقترح عليه] أن لا يخلينى عن دعوات فى أوقات خلوته ، وأن يسأل الله تعالى أن يرينى ... » . وهذا الرجاء نفسه يتكرر بنصه فى مقدمة « معيار العلم » ، وفى « المنقذ » ص ٣٠ س ٥ من أسفل .

المنطق هم الآخرون ظلماً ولا يعدلون . وذلك أنهم « يجمعون للبرهان شروطاً يعْلَم أنها تورث اليقين لا محالة . لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ، ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط . بل تساهلوا غاية التساهل . وربما ينظر فى المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحاً فيظن أن ما يُنْقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين (اليقينية) » فيتعجل ويقع فى الكفر قبل أن يتمكن من معرفة الحقيقة بادراكه حقيقة علومهم الآلهية [١] .

تلك هى الأخطار التى قد تجر إليها دراسة المنطق ، على الرغم من أن المنطق لا يتعلق بالدين منه شىء . وليس فى هذا تحريم للاشتغال بالمنطق ، وإلا لكان الغزالى متناقضاً مع جانب خطير رائع من جوانب حياته العلمية .

— ٦ —

إلا أن المعارضة فى دراسة علم المنطق لم تصل أوج شدتها إلا فى العصر الذى تلا الغزالى ، وكانت مرتبطة فى هذا العصر ، ابتداء من القرن السابع الهجرى ، باسم محدِّث من أشهر المحدثين فى عصر بدء الانحلال . فالرواة يحدثوننا عن شخصية من أعظم الشخصيات العلمية فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، وتلك هى شخصية كمال الدين بن يونس الموصلى . عرفه ابن خلكان ، وكان على اتصال به ، فقدم لنا صورة واضحة لما كان عليه من عبقرية وسعة أفق ومشاركة فى نواح عديدة من نواحى العلم [٢] . فالى جانب معرفته بالعلوم الشرعية الاسلامية على اختلاف مذاهبها ، كان ملما بالتوراة والانجيل ، حتى كان اليهود والنصارى ، فيما يحدثنا الرواة ، يتلقون عنه تفسير كتبهم ، وكانوا يعلمون منه ما لم يكونوا يستطيعون العلم به من علمائهم هم أنفسهم ، ولم يكن له ثمة من نظير فى معرفته بالرياضيات والطبيعيات والعلوم

(١) « المنقذ » ص ١٠ و ص ١١ .

(٢) ابن خلكان ، طبع فستنفلد ، تحت رقم ٧٥٧ (ج ٩ ص ٢٤ وما يليها) ، وقد أورد هذا الكلام بتمامه السبكى فى « طبقات الشافعية » ، ج ٥ من ص ١٥٩ إلى ص ١٦٢ .

الفلسفية. فكان يعلم من المنطق والطبيعة والحساب والهندسة والهيئة والطب والموسيقى والآلهيات ما لم يكن يعلمه واحد من معاصريه فى فرع من هذه الفروع. وعلمه باقليدس وبطليموس لم يكن أقل من علمه بذخائر الشعر العربى وما يرويه التاريخ. وعليه أقبل طلاب العلم من جميع الأنحاء، يأخذون عنه علوم الدين وعلوم الدنيا. ومن بين هؤلاء الطلاب الشبان الذين كانوا يحجون إليه ابن الصلاح الشهرزورى (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) الذى أصبح فيما بعد إماماً من أكبر أئمة الحديث[1]. ارتحل ابن الصلاح إلى الموصل كى يتلقى على كمال الدين هذا دروساً فى المنطق سراً. إلا أنه على الرغم من تردده عليه مدة من الزمان طويلة وعلى الرغم مما أظهره الشيخ من حسن استعداد لافادته، لم يستطع هذا العلم أن ينفذ إلى دماغ هذا الطالب، الشاب الذى كان اتجاه عقله اتجاها دينيا خالصا. فلم يكن فى وسع كمال الدين إلا أن يقول له: «يافقيه، المصلحة عندى أن تترك الاشتغال بهذا الفن». فقال له: «ولم ذلك يا مولانا؟» فقال: «لأن الناس يعتقدون فيك الخير، وهم ينسبون كلّ من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد، فكأنك تفسد عقائدهم فيك، ولا يحصّل لك من هذا الفن». فقبل ابن الصلاح إشارته وترك الاشتغال بالمنطق. وإلى هذا كله يضيف ابن خلكان أن كمال الدين كان «يتهم فى دينه، لكون العلوم العقلية غالبة عليه. وكانت تعتريه فى بعض الأحيان غفلة لاستيلاء الفكرة عليه بسبب هذه العلوم» وتبعاً لهذا حكم الناس عليه بما حكموا.

أما ابن صلاح الدين الشهرزورى فلم يكتف بترك الاشتغال بهذا العلم الذى لم يتسع له أفقه وكان خارجاً عن نطاقه، بل صار خصما لدوداً له باسم الدين، فى تلك الاجابة التى أجاب بها على من سأله (ولعل هذا السؤال أن يكون من وضعه هو نفسه): هل الشارع قد أباح الاشتغال بالمنطق تعلماً أو تعليما؟ وهل يجوز أن تستعمل الاصطلاحات المنطقية فى إثبات الأحكام

---

(١) بروكلمن ج ١ ص ٣٥٨ برقم ١٩.

الشرعية ؟ وماذا يجب على ولى الأمر فعله بازاء شخص من أهل الفلسفة معروف بتعليمها والتصنيف فيها ، وهو مدرس فى مدرسة من المدارس العامة؟

يبدأ ابن الصلاح فتواه بأن يصف الفلسفة وصف أهل السنة لها ، فيقول : إن « الفلسفة أسّ السفه (١) والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة . ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهّرة ، المؤيدة بالحجج الظاهرة ، والبراهين الباهرة . ومن تلبّس بها تعليما وتعلما ، قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان . وأى فن أخذى من فن يُعمى صاحبَه ويُظلم (٢) قلبَه عن نبوّة نبينا محمد صلعم كلما ذكره الذاكرون وكلما غفل عن ذكره غافل مع انتشار آياته المستبينة ومعجزاته المستنيرة ، حتى لقد انتدب بعضُ العلماء لاستقصائها فجمع منها ألف معجزة (٣) ، وعددناه مقصّراً ، إذ هى (٤) فوق ذلك بأضعاف لا تحصى . فانها ليست مقصورة (٥) على ماوجد منها فى عصره صلى الله عليه وسلم ، بل تتجدد (٦) بعده

(١) تورية بالجزء الثانى من الكلمة : فل[سفه] . ويتلاعب أبو الفتح البستى بهذا اللفظ فيقول إن « فلسفة » أصلها « فلّ السفه » (ذكره الثعالبى ، « يتيمة الدهر » [طبعة دمشق سنة ١٣٠٤] ج ٤ ص ٢٠٧ س ١٣) ، وتلاعب مثل هذا التلاعب أيضا الفقيه أبو عمران الميرتلى فى أبيات له هجا فيها الفلسفة (كتاب ألف باء [القاهرة ، المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٧] ج ١ ص ٢٣ س ٢٠) فقال :

لا خير فيما الفل أوله وآخره سفه

(٢) فى المخطوطة : أظلم [ومؤلف البحث يقرأها : أظلم ؟ وهى قراءة لا تتفق مع ما يقتضيه السياق من وضع الفعل فى صيغة المضارع ، لأنه معطوف على « يعمى » ؟ ولهذا اخترنا القراءة الموجودة بالطبعة المصرية] .

(٣) راجع كتابى « دراسات إسلامية » ج ٢ ص ٢٨٥ تعليق رقم ٢ *Muh. Stud.* ، عبد القادر الجيلانى ، « الغنية » (طبعة مكة سنة ١٣١٤) ج ١ ص ٦٦ فى الوسط : « وقد عدها أهل العلم ألف معجزة » .

(٤) غير موجودة فى المخطوطة [وغير موجودة أيضا فى الطبعة المصرية] .

(٥) [فى نص مؤلف البحث ، كما فى الطبعة المصرية ، هكذا . ونحن نفضل قراءتها : « مقصورة » نظراً إلى حرف الجر « على »] .

(٦) فى المخطوطة : على يتجدد [ومؤلف البحث يقرأها : وما يتجدد ، والقراءة التى أثبتناها هنا هى الموجودة فى الطبعة المصرية ، وقد اخترناها لأنها أوضح ولأنها تصحيح يسهل استخلاصه مما هو وارد فى المخطوطة] .

صلعم على تعاقب العصور . وذلك أن كرامات الأولياء من أمته وإجابات[١] المتوسلين به فى حوائجهم ومغوثاتهم[٢] عقيب توسلهم به فى شدائدهم ، براهين له قواطع ، ومعجزات له سواطع ، ولا يعدها عاد ولا يحصرها حاد...

« وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر . وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين وسائر من يُقْتَدى به من أعلام الأمة وساداتها ، وأركان الأمة وقادتها . قد برّأ الله الجميع من مَعَرّة ذلك وأدناسه ، وطهّرهم من أوضاره[٣] . وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية فى مباحث الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة ، والرقاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام الشرعية ، والحمد لله ، افتقار إلى المنطق أصلا . وما يزعمه المنطقىّ للمنطاق من أمر الحد والبرهان فقعاقع أغنى الله عنها كلّ صحيح الذهن ، لاسيما من خدم نظريات[٤] العلوم الشرعية . ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاض فى بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة . ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها ، فقد خدعه الشيطان ومكر به . فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شرّ هؤلاء المياشيم ، ويخرجهم عن المدارس ، ويبعدهم ، ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، ويَعْرض من ظهر عنه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الاسلام ،

---

(١) فى المخطوطة : واحيات [ومؤلف البحث يقرأها : واخبات ؛ والقراءة التى أثبتناها هى الموجودة فى الطبعة المصرية . وظاهر أن هذه القراءة الأخيرة هى الصحيحة : لأن « الاخبات » معناه الخشوع ، وليس هو المقصود هنا ، لأن الكلام متصل بالمعجزات والكرامات ، و « إجابات » المتوسلين داخلة فى معنى الكرامات والمعجزات ؛ كما أنها من الناحية اللفظية أرجح ، فان « الاجابة » أولى أن تقرن « بالتوسل »] .

(٢) [فى الطبعة المصرية : إغاثاتهم] .

(٣) [فى الطبعة المصرية : « أوصابه » ؛ والقراءة التى فى نص مؤلف البحث ، والتى أثبتناها هنا لعلها أن تكون الأصح] .

(٤) فى المخطوطة : بطربات .

لتخمد نارهم (١) ويمحى آثارها وآثارهم . يسّر الله ذلك وعجّله. ومنْ أوجب هذا الواجب عَزْلُ من كان مُدَرِّسَ مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها ، والاقراء لها ؛ ثم سجنه وإلزامه منزله . وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم، فإن حاله تكذّبه ، والطريق فى قلع الشر قلع أصوله . وانتصاب مثله مُدَرِّساً من العظائم جملة ، والله تعالى ولى التوفيق والعصمة ، وهو أعلم (٢) » .

ومن ثم أصبحت هذه الفتوى وثيقة عليها يعتمد خصوم المنطق ، وبها يهيبون ويستشهدون . ولن ينسى الناس أن هذه الفتوى موجهة أيضاً ضد الغزالى ، لأنه هو الذى أدخل مناهج المنطق فى الفقهيات . وإن لابن الصلاح على الغزالى مآخذ ومآخذ ؛ ونحن نراه لاينسى أن يذكر من بين هذه المآخذ اشتغاله بالمنطق (٣) .

وليست فتوى ابن الصلاح هذه إلا تعبيراً عن الرأى السائد فى البيئات السنية فى مناطق واسعة من العالم الاسلامى إبان ذلك العصر ، ولم يكن الباعث عليه هذا التحريم الذى قضى به هذا العالم الدينى الشهير . والبينة الواضحة على هذا ماحدث لأحد معاصريه ، ونعنى به سيف الدين على الآمدى (المولود سنة ٥٥١ والمتوفى سنة ٦٣١) . وكان سيف الدين فى أول اشتغاله حنبلى المذهب ، قد درس على ابن المنّى (راجع قبل ص ١٣١ ، تعليق رقم ١) وتخرج عليـــه . ثم انتقل من بعد إلى مذهب الشافعى . وكان عالماً بالدين

---

(١) [ومؤلف البحث يقرأها : « ليحمى ديارهم » ، لأن فى المخطوطة : « ليحم ديارهم » ؛ وواضح أن هذه القراءة غير ممكنة ، نظرا إلى اضطراب الضمائر فى ديارهم ، وآثارها ، وآثارهم . ولهذا أثبتنا ما هو وارد فى الطبعة المصرية] .

(٢) [نشر مؤلف البحث هذه الفتوى عن مخطوطة بدار الكتب برقم ٣٣٧ ، فقه الشافعية ، ورقة ١١٧ (فهرست دار الكتب ج ٣ ص ٢٤٨) ، وترجمها . ولكن فتاوى ابن الصلاح قد نشرت الأقسام الثلاثة الأولى منها بالقاهرة سنة ١٣٤٨ ، نشرتها إدارة الطباعة المنيرية عن مخطوطة موجودة بمكتبة الأزهر ، وأخرى محفوظة بدار كتب رواق الأتراك بالقاهرة برقم ١٧٧٦] .

(٣) السبكى ؛ « طبقات الشافعية » ج ٤ ص ١٢٩ س ٦ ؛ ص ١٣١ س ٦ .

مشهوراً ، قد جمع بين البراعة فى العلوم الدينية والفقهية (وخصوصا علم الأصول) وبين الاشتغال بفنون من علوم الأوائل اشتغالا [١] مهماً ؛ وقد جاء إلى القاهرة وتولى تدريس العلوم الشرعية المعتادة ، واشتهر بذلك شهرة كبيرة . إلا أنه اضطهد اضطهاداً منشؤه التعصب ، لأنه اشتغل بالدراسات الفلسفية (المنطق خصوصاً) إلى جانب اشتغاله بالعلوم الشرعية ، مع أنه لم يكن فى تدريسه يدرس شيئاً من العلوم الفلسفية [٢] . فقد اتهم بأنه فاسد العقيدة ، يقول بالتعطيل (راجع قبل ص ١٢٨) ، ويذهب مذهب الفلاسفة . وكُتِب محضر بذلك ، وقع عليه الكثيرون ، وأعلنوا فيه استباحة دمه[٣]. فلما رأى سيف الدين هذا التألب عليه فرّ إلى الشام ، ودُعى إلى التدريس باحدى مدارس دمشق ، ولكنه عزل من بعدُ لاتهامه بما يشبه ما اتهم به من قبل . وهذا مثل مأخوذ من الحياة الواقعية فيه تطبيق للنظرية التى قال بها ابن الصلاح الشهرزورى .

ومنذ هذا التاريخ اعتبر الاشتغال بالمنطق من بين الأشياء المحرمة على المؤمن الصحيح الايمان . وكان لهذا التحريم مظاهر شتى . فكان قاسياً شديداً حيناً ، أقل قسوة وشدة فى أحيان أخرى . فنرى واحداً من مشايخ الشافعية المشهورين ، هو تاج الدين السبكى (المتوفى سنة ٧٧١) يتخذ بازاء الفلسفة موقفا مملوءاً بأشد ما يمكن تصوره من العداوة ، بل ويتخذ هذا الموقف نفسه بازاء المتأخرين من المتكلمين الذين مزجوا كلامهم بكلام الفلاسفة ، ويوافق موافقة تامة وبدون شرط على ما أفتى به « جماعة من أئمتنا ومشيختنا ومشيخة

---

(١) طبع الفصل الخاص بالعبارة من كتاب « أبكار الأفكار » له الذى ذكره بروكلمن ، فى مجلة « المشرق » المجلد الرابع من ص ٤٠٠ إلى ص ٤٠٣ ، وهى مجلة عربية شهرية تصدر فى بيروت .

(٢) يقول ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٧٤ س ١٨ ، الذى أغفل ذكر اضطهاد الآمدى ، ما نصه : « وكان نادرا أن يُقرىء أحدا شيئا من العلوم الحكمية » .

(٣) ابن خلكان ، طبع فستنفلد ، برقم ٤٤٣ (ج ٥ ص ٢٠) .

مشيختنا بتحريم الاشتغال بالفلسفة » على حد تعبيره . أما المنطق فان السبكى لايحرمه تحريما تاما ، وليس من شك فى أنه فعل هذا عاملا حسابا لبعض الأئمة الذين اشتغلوا بالمنطق كالغزالى الذى كان السبكى يجله كثيراً ، وإنما هو يسمح بالاشتغال بالمنطق بشرط أن يكون من يريد الاشتغال به قد رسخت قواعد الشريعة فى قلبه ، ووصل فى العلوم الشرعية إلى درجة من الكمال أصبح معها يعد « فقيها مفتيا مشارا إليه من أهل مذهبه ، إذا وقعت حادثة فقهية » . أما ماعداه فيحرم عليه الاشتغال بالمنطق (١) . ومن المؤكد أن الاهابة بفتاوى الأئمة والمشيخة تشمل أيضا فتوى ابن الصلاح .

ولعل تقى الدين بن تيمية الحنبلى الكبير (المتوفى سنة ٧٢٩) كان فى موقفه بازاء هذه المسئلة التى نحن بصددها مستقلا عن ابن الصلاح . كان ابن تيمية عدواً لدوداً للفلسفة ، وهذا الرأى العدائى فى الفلسفة وارد فى معظم مؤلفاته العديدة . وله رسالة خاصة عنوانها « الردّ على عقائد الفلاسفة » ، أوصى تلميذُه شهابُ الدين أتباعَ الشيخ بها فى رسالة التعزية التى كتبها إليهم بعد موت الشيخ ، وقد لاحظ أيضاً أن من المتعذر الحصول على نسخة كاملة من هذه الرسالة (٢) . وكتب ابن تيمية أيضاً كتاباً عنوانه « نصيحة أهل الايمان فى الرد على منطق اليونان (٣) » ، لخصه جلال الدين السيوطى فى كتاب موجود فى مجموعة مخطوطات ڤارنر برقم ٤٧٤ فى مكتبة جامعة ليدن (٤) .

---

(١) « معيد النعم ومبيد النقم » لتاج الدين السبكى ، طبع مهرمن ص ١١١ . يشير السبكى فى هذا الموضع إلى مقدمة كتابه « شرح مختصر ابن الحاجب » ، وفيها أورد كلام الأئمة المتقدمين فى علم المنطق . وإلى هذا يشير أيضاً فى « طبقات الشافعية » ج ٤ ص ١٢٩ س ٦ ، أثناء دفاعه عن الغزالى ضد ابن الصلاح .

(٢) طبعت هذه الرسالة فى مجلة « المنار » ، المجلد العاشر من ص ٦١٦ الى ص ٦٢١ .

(٣) [موجود من هذا الكتاب نسخة خطية فى مكتبة سليمان ندوى بالهند . ولسليمان هذا بحث فى هذا الكتاب ظهر فى مجلة « الثقافة الاسلامية » Islamic Culture]

(٤) راجع كتابى عن الظاهرية ص ١٣٠ .

وهذا السيوطى يحدثنا هو الآخر عن تحريمه الاشتغال بفن المنطق ، فيقول فى ترجمته الذاتية التى تفيض بافتخاره بنفسه : « وقد كنت فى مبادىء الطلب قرأت شيئاً فى علم المنطق ؛ ثم ألقى الله كراهته فى قلبى . وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه ؛ فتركته لذلك . فعوضنى الله تعالى عنه علم الحديث ، الذى هو أشرف العلوم (١) » . ويظهر أن السيوطى قد أظهر عداءه للمنطق فى مناسبة أخرى ؛ نعرف ذلك من الرسائل المنظومة (٢) التى تبادلها هو ومحمد بن عبد الكريم المغيلى الفقيه التواتى المتعصب ، وكانت تدور حول هذا الموضوع . وواضح من هذه الرسائل المتبادلة أن رجلا اسمه كافور كتب كتاباً عنوانه « الفرقان » — والكتاب وصاحبه غير معروفين تماماً — فيه تحدث عن المنطق حديث المستحسن له . فقام السيوطى ، وقد كان على اتصال بالبيئات الدينية فى داخل افريقية (٣) ، يهاجمه مهاجمة عنيفة . حينئذ هبّ الفقيه التواتى ، على الرغم مما كان عليه من تعصب شديد (٤) ، للدفاع عن المهاجَم فى رسالة منظومة ، بينما السيوطى فى رده المنظوم الذى أرسله إلى توات قد برر سلوكه فى هذه المسألة بقوله إن المنطق — وهو فضلا عن ذلك من علوم اليهود والنصارى — علم يحرم الاشتغال به ، وأنه لا يحق لانسان أن يسمى كتاباً اتجاهه كاتجاه كتاب كافور باسم « الفرقان » ، فهذا الاسم خاص

---

(١) أورده مويرزنجه فى طبعته لكتاب « طبقات المفسرين » للسيوطى ص ٦ السطر الأخير .

(٢) من كتاب « نيل الابتهاج » لأحمد بابا السودانى المطبوع فى كتاب « تعريف الخلف برجال السلف » ، طبع أبى القاسم محمد الحفناوى ج ١ (الجزائر سنة ١٩٠٦) ص ١٦٩ و ص ١٧٠ ، حيث يورد نص القصيدتين .

(٣) راجع بحثى « فى مميزات . . السيوطى وتآليفه » الذى ظهر فى « محاضر جلسات أكادمية ڤينا » SBWA (١٨٧١) قسم الدراسات الفلسفية التاريخية ، المجلد رقم ٦٩ ص ١٧

(٤) راجع « مجلة الدراسات اليهودية » ، المجلد رقم ٦٠ ص ٣٤ وما يليها . ثم « مجلة العالم الاسلامى » Rev. du monde mus. المجلد رقم ١٢ ص ٢١٠ و ص ٢١١

بالكتاب الكريم فحسب (١) .

وعلى الرغم من هذا كله فان الكتب المؤلفة تدلنا على أن هذا الرأى القاضى بتحريم المنطق ، وهو الرأى الذى قال به المتعصبون ، لم يكن نصيبه النجاح فى السيطرة على نظام الدراسة الدينية الاسلامية . فالمكانة التى احتلتها الكتب المنطقية أمثال مؤلفات الأبهرى (شرح إيساغوجى) والكاتبى (الشمسية) والأخضرى وغيرهم ممن ألفوا متوناً فى المنطق ، نقول إن المكانة التى احتلتها هذه الكتب — ونحن لا نذكر هنا إلا أعظمها تأثيراً — فى التدريس بجانب العلوم الاسلامية ، تقدم لنا الدليل على أن أصوات المعارضة المعادية للمنطق ذهبت هباء ، ولم يكن لها فى واقع الأمر نجاح . بل إن علم الكلام نفسه قد استخدم ، فى تأسيس قواعده ومقدماته وفى تطوره وارتقائه ، الفلسفة الارسطالية كمرشد يسير على منهج قويم ، وكان ذلك خصوصاً منذ الفخر الرازى (المتوفى سنة ٦٠٦) . وليس أدل على ضآلة النجاح الذى لقيته صرخات ابن الصلاح الشهرزورى مما كشف عنه حديثا (٢) البحثُ فى المذهب الكلامى الذى تضمنه كتاب السنوسىُ (٣) (المتوفى سنة ٨٩٢)

(١) [وللسيوطى عدا هذا كتاب هو أهم ما كتبه فى هذا الباب ، ولعله أن يكون أوسع كتاب ألف فى موضوع ذم المنطق ونقده ، فى ذاته ومن الناحية الدينية . وهذا الكتاب هو « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » . ولا نعرف من النسخ المخطوطة لهذا الكتاب غير المخطوطة الموجودة بدار الكتب الأزهرية ضمن مجموعة رسائل للسيوطى . والذى نبه الى وجودها هو أستاذنا الجليل فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق بك ، وهو يقوم الآن بالتدريس فيها ، والعمل على نشرها .

وفى أول هذا الكتاب يشير السيوطى الى كتاب له آخر فى هذا الموضوع نفسه هو « القول المشرق » ضمنه أقوال أئمة الأسلام فى ذمه وتحريمه . كما يشير أيضاً إلى الكتاب المذكور هنا آنفاً ونعنى به تلخيصه لكتاب ابن تيمية « نصيحة أهل الايمان » ، واسم هذا التلخيص « جهد القريحة فى تجريد النصيحة »] .

(٢) ماكس هورتن ، « السنوسى والفلسفة اليونانية » ، فى مجلة « الاسلام » سنة ١٩١٥ المجلد رقم ٦ ص ١٧٨ — ص ١٨٨ Max Horten, "Sanūsi und die Griechische Philosophie".

(٣) بروكلمن جـ ٢ ص ٢٥٠ .

المعروف باسم «السنوسية» : فان هذا المذهب يسير على نمط الفلسفة اليونانية. وكتابه هذا قد نال مركز السيادة فى المدارس السنية فى الاسلام .

وظل المنطق حتى أحدث العصور يدرس مع العلوم الشرعية باعتباره علماً مساعداً . ووضعت لفائدة الطلاب متونٌ فى هذا العلم ، بل ووضعت فيه منظومات أيضاً ، جرياً على تلك الطريقة التعليمية التى لاتزال شائعة فى الشرق[١] . ومنذ قرن أو يزيد نظم أحد الكتاب من رجال الدين فى القاهرة وكان كثير التآليف مشهورا فى زمانه ، أشكال القياس ، وأضاف إلى ذلك شرحا عليه[٢].

وإنا لنرى هذه الظاهرة نفسها تتحقق بالنسبة إلى الفروع الباقية من علوم الأوائل كذلك . وهذا دليـــــل واضح على أن الاحتجاجات والرغبات النظرية التى صدرت عن المتعصبين المتزمتين من رجال الدين فى الاسلام لم يكد يكون لها أدنى تأثير فى تشكيل الحقيقة الواقعية وتكوينها. والكفاح الذى قمنا بعرضه فى هذا البحث إنما كان من نصيب زمان قد مضى وزال . أما اليوم فأهل السنة من المسلمين لا يقاومون علوم الأوائل بصورتها الحاضرة بعد أن ارتقت ما ارتقت وتطورت ماتطورت ، ولا يشعرون فى أنفسهم بشىء من المعارضة لها والسخط عليها .

---

(١) ومن قبل نظم الفيلسوف الطبيب المشهور محمد بن زكريا الرازى (توفى حوالى سنة ٣١١ — ٣٢٠) قصيدة تعليمية فى المنطق . فالفهرست يورد من بين مؤلفاته : « قصيدة فى المنطقيات » (ص ٣٠١ س ٢٤) .

(٢) « شرح نظمه لأشكال المنطق » ، على مبارك ، «الخطط الجديدة» ج١٢ ص١١ ، س ١٤ من أسفل .

نصوص ملحقة

— ١ —

من كتاب « طبقات الحنابلة » لابن رجب الحنبلي ، مخطوطة مكتبة جامعة ليبتسك برقم ٣٧٥ ، برمز D.C. برقم ٧٠٨ فى فهرست فولرز ورقة ١١٥ أ :

« إسماعيل بن على بن حسين البغدادى الأزجى المأمونى ، الفقيه الأصولى المناظر المتكلم ، أبو محمد ، ويلقب فخر الدين ، ويعرف بابن الرفاء وبابن الماشطة [١] . واشتهر تعريفه بغلام ابن المنى . ولد فى صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وسمع الحديث من شيخه أبى الفتح ابن المنى . ولازمه حتى برع وصار أوحد زمانه فى علم الفقه والخلاف والأصولين والنظر والجدل . ودرّس بعد شيخه بمسجده بالمأمونية . وكانت له حلقة بجامع القصر يجمع اليه فيها الفقهاء للمناظرة . وكان حسن الكلام ، جيد العبارة ، فصيح اللسان ، رفيع الصوت . وله تصانيف فى الخلاف والجدل : منها « التعليقة» المشهورة ، و « المفردات » ، ومنها كتاب « جنة الناظر وجُنة المناظر » فى الجدل . واشتغل عليه جماعة وتخرجوا به ، وحدّث ، وسمع منه جماعة ، وأجاز لعبد الصمد بن أبى الجيش المقرىء . وولاه الخليفة الناصر النظر فى قراه وعقاره الخاص ، ثم صرفه . وقد حط عليه أبو شامة ، ونسبه إلى الظلم فى ولايته ، وأظنه أخذ ذلك من «مرآة الزمان[٢]» . وكذلك ابن النجار[٣] مع أنه قال : كان حسن العبارة ، جيد الكلام فى المناظرة ، مقتدراً على رد

(١) هناك شخص آخر بهذا اللقب ، ذكره الفهرست ص ١٣٥ س ١٧ .

(٢) هذا كتاب فى التاريخ لسبط ابن الجوزى (بروكلمن جـ ١ ص ٣٤٧) ، وقد نشر جزءاً منه ج . ر . جيوت (نسخة مماثلة لمخطوطة فى جامعة ييل) ، شيكاغو سنة ١٩٠٧ . راجع امدروز ، فى « مجلة الجمعية الأسيوية الملكية » سنة ١٩٠٧ ، ص ١٠٧٥ وما يليها .

(٣) راجع قبل ص ١٣٢ تعليق رقم ١ .

الخصوم ، وكانت الطوائف مجمعة على فضله وعلمه ، وكان يدرس فى منزله ، ويحضر عنده الفقهاء . قال: ورتّب ناظراً فى ديوان الطبق مُديدة ، فلم تحمد سيرته ، فعزل ، واعتقل مدة بالديوان . ثم أطلق ولزم منزله . قال : ولم يكن فى دينه بذاك [١] . ذكر لى ولده أبو طالب عبد الله فى معرض المدح أنه قرأ المنطق والفلسفة على ابن مرقش الطبيب النصرانى ، ولم يكن فى زمانه أعلم منه بتلك العلوم ، وأنه كان يتردد اليه إلى بيعة النصارى . قال وسمعت من أثق به من العلماء يذكر أنه صنف كتابا سماه « نواميس الأنبياء » يذكر فيه أنهم كانوا حكماء كهرمس وارسطاطاليس . قال : وسألنا بعض تلامذته الخصيصين به عن ذلك فما أثبته ولا أنكره . وقال : كان متسمحاً فى دينه ، متلاعباً به ، ولم يزد على ذلك . قال : وكان دائما يقع فى الحديث وفى رواته ويقول : هم جهال لا يعرفون العلوم العقلية ، ولا معانى الأحاديث الحقيقية ، بل هم مع اللفظ الظاهر ، ويذمهم ويطعن عليهم . ومما أنشده ابن النجار من شعره :

دليل على حرص ابن آدم أنه ترى كفّه مضمومة وقت[٢] وضعه
ويبسطها عند الممات إشارة إلى صَفْرها مما حوى بعد جمعه

وتوفى فى ربيع الأول سنة عشر وستمائة ، كذا ذكر ابن القادسى [٣] ، وأبو شامة ، وذكر ابن النجار أنه توفى فى يوم الثلاثاء من ربيع الأول ودفن من يومه بداره بدرب الحب (هكذا) ثم نقل بعد ذلك إلى باب حرب[٤] ، رحمه الله وسامحه . وذكر ابن القادسى فى تاريخه أنه وُجد ببغداد

---

(١) فى الأصل : بدال .

(٢) وهناك قراءة فى الهامش هى : عند .

(٣) لم استطع أن أحصل على معلومات مفصلة عن كتابه الذى يقتبس منه ابن رجب كثيراً (راجع مثلا ماذكرناه فى « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٦٢ ص ١٥ ، تعليق رقم ٤) .

(٤) راجع « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٦٢ ص ١٥ .

يهودى تزوج بمسلمة ، وأولدها ولدين . فخاف اليهودى ، وأسلم . فجُمع الفقهاء واستفتوا فى أمره . قال : فقيل إن الفخر اسماعيل غلام ابن المنى قال: « الاسلام يَجُبّ ماقبله »

— ٢ —

من المخطوطة المذكورة ورقة ١١٦ ا :

« وكان أديبا ، كيّسا ، مطبوعا ، عارفا بالمنطق والفلسفة والتنجيم وغير ذلك من العلوم الرديئة . وبسبب ذلك نُسب إلى عقيدة الأوائل ، حتى قيل إن والده رأى عليه يوما ثوبا بخارياً فقال : والله هذا عجب ! مازلنا نسمع البخارى ومسلم ، وأما البخارى وكافر فما سمعناه ، وكان أبوه كثير المجون والمداعبة كما تقدم عنه . وكان عبد السلام أيضا غير ضابط للسانه ، ولا مشكوراً (١) فى طريقته وسيرته ، يُرمى بالفواحش والمنكرات . وقد جرت عليه محنة فى أيام الوزير ابن يونس ، وحُكم بفسقه ، وأحرقت كتبه . وكان سبب ذلك أن ابن يونس كان جاراً لأولاد الشيخ عبد القادر فى حال فقره . فكانوا يؤذونه غاية الأذى . فلما ولى ابن يونس وتمكن ، شتت شملهم وبعث ببعضهم إلى المطامير بواسط . وبعث فكبس دار عبد السلام هذا ، وأخرج منها كتباً من كتب الفلاسفة ، ورسائل إخوان الصفا ، وكتب السحر والنارنجيات وعبادة النجوم . واستدعى ابن يونس ، وهو يومئذ أستاذ الدار ، العلماءَ والفقهاء والقضاة والأعيان ، وكان ابن الجوزى معهم . وقُرىء فى بعضها مخاطبة زُحل ، يقول : « أيها الكوكب المضىء المنير ! أنت تدبّر الأفلاك ، وتحيى وتميت ، وأنت إلـهنا » ، وفى حق المريخ من هذا الجنس . وعبد السلام حاضر . فقال ابن يونس : هذا خطك ؟ قال : نعم . قال لم كتبته ؟ قال : لأرد على قائله ومن يعتقده . فأمر باحراق كتبه . فجلس

(١) فى الأصل : مشكور .

قاضى القضاة والعلماء ، وابن الجوزى معهم على سطح مسجد مجاور لجامع الخليفة يوم الجمعة ، وأضرموا تحت المسجد ناراً عظيما ، وخرج الناس من الجامع ، فوقفوا على طبقاتهم ، والكتب على سطح المسجد . وقام أبو بكر ابن المرستانية فجعل يقرأ كتابا كتابا من مخاطبة الكواكب ونحوها ، ويقول العنوا مَن كتبه ، ومن يعتقده ، وعبد السلام حاضر . فيصيح العوام باللعن . فتعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر ، بل وإلى الامام أحمد ، وظهرت الأحقاد البدْرية (١) . وقال الخصوم أشعاراً ، منها قول المهذب الرومى ، ساكن النظامية :

لىَ شعرٌ أرق من دين ركن الديـ ... ـن ، عبد السلام لفظا ومعنى
زُحلى (٢) يشنىءعليا ويهوى الحر ... ب حقداً عليه (٣) ... وضغنا
منحته النجوم ، إذ رام سعداً ... وسروراً ، نحساً وهمّاً وحزنا
سار إحراقُ كتْبه سيرَ شعرى ... فى جميع الأقطار سُهلا وحَزنا
أيها الجاهل الذى جعل الحق م ... ضـلالا وضيّع العمْر غبنا
رُمْت ، جهلا ، من الكواكب بالتحيـير (٤) عزاً ، ونلت ذلا وسجنا
ماز ُحيلا (٥) وما ُعطارد والمر ... يخ والمشترى تُرى يامُعنى ؟
كلُّ شىء يودى و يَفنى سوى اللـ ... ـه إلهى ، فانه ليس يفنى

ثم حكم القاضى بتفسيق عبد السلام ورمى طيلسانه . فأخرجت مدرسة جده من يده ويد أبيه عبد الوهاب ، وفُوّضت إلى الشيخ أبى الفرج ابن

---

(١) [يفسرها مؤلف البحث بأنها نسبة الى بدر الموقعة المشهورة ، فيكون المعنى أن الحاضرين تحمسوا للاسلام وثاروا من أجله ، كما تحمس أهل بدر من المسلمين . إلا إنه يشكلها بفتح الدال ، وصواب النسب إلى موقعة بدر أن تكون الدال ساكنة كما اثبتناه] .

(٢) منصوب فى الأصل .

(٣) هنا نقص يختل معه الوزن ؛ ولعل الصواب هو : حقداً على على .

(٤) فى الأصل : بالتحير .

(٥) فى الأصل : زحيل .

الجوزى ، فذكر فيها الدرس مدة ، ذكر ذلك أبو المظفر سبط ابن الجوزى وذكر معناه ابن القادسى ، وزاد أن عبد السلام أودع الحبس مدة . ولما أفرج عنه ، أخذ خطه بأنه يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن الاسلام حق ، وما كان فيه باطل . وأطلق . ثم لما قبض على ابن يونس ردت مدرسة الشيخ عبد القادر إلى ولده عبد الوهاب ، ورُدّ ما بقى من كتب عبد السلام التى أحرقت بعضها ، وقبض على الشيخ أبى الفرج بسعى عبد السلام هذا كما تقدم ذكره (١) . ونزل معه عبد السلام فى السفينة إلى واسط ، واستوفى منه بالكلام ، والشيخ ساكت . ولما وصل إلى واسط عُقد مجلس حضره القضاة والشهود ، وادعى عبد السلام على الشيخ أنه تصرف فى وقف المدرسة ، واقتطع من مالها . وأنكر الشيخ ذلك . وكتب محضر بما جرى ، وأمر الشيخ بالمقام بواسط ، ورجع عبد السلام » .

(١) لاكمال ما ذكرناه قبل ص ١٢٩ عن اتجاه الخليفة الناصر الدينى ، يجدر بنا أن نورد الوضع الوارد هنا بنصه : ففى الورقة ٩٥ ب ما يلى :

« فلما ولى الوزارة ابن القصاب ، وكان رافضياً خبيثاً سعى فى القبض على ابن يونس وتتبع أصحابه . فقال له الركن : أين أنت عن ابن الجوزى ! فانه ناصبى من أولاد أبى بكر ، فهو من أكبر أصحاب ابن يونس ، وأعطاه مدرسة جدى ، واحترقت كتبى بمشورته . فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر ، وكان الناصر له ميل إلى الشيعة ، ولم يكن له ميل إلى الشيخ ابى الفرج ، بل قد قيل أنه كان يقصد أذاه ، وقيل ان الشيخ ربما كان يعرض فى مجالسه بذم الناصر . فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام ، فجاء إلى دار الشيخ ، وشتمه وأغلظ عليه ، وختم على كتبه وداره ، وشتت عياله . فلما كان فى أول الليل ، حمل إلى سفينته ، وليس معه إلا عدوه الركن ، وعلى الشيخ غلالة بلا سراويل ، وعلى رأسه تخفيفة ، فأحدر الى واسط ، وكان ناظرها شيعياً . فقال له الركن : مكنى من عدوى لأرميه فى المطمورة الخ » .

ويلى ذلك ذكر سجن ابن الجوزى خمس سنوات (من سنة ٥٩٠ إلى ٥٩٥) ، ثم اطلاق سراحه ، ورد اعتباره .